صورة الحجاج في شعر معاصريه

د. ليلى بنت محمد بن عبدالرحمن الدخيل
قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

صورة الحجاج في شعر معاصريه

د. ليلى بنت محمد بن عبدالرحمن الدخيل
قسم اللغة العربية
كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

ملخص البحث:

شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي شخصية شغلت المؤرخين كثيرا فسودوا عنها صفحات وصفحات، راوين ومحللين ومقومين، ولفت نظري أن هذه الشخصية شغلت المؤرخين وشغلت الشعراء معا، فصيغ حولها كثير من الشعر قريب من ألف بيت – فيما اطلعت عليه من مصادر – شارك في صياغته كبار شعراء العصر الأموي وفي مقدمتهم قطبا الشعر الأموي جرير والفرزدق إلى جانب شعراء العصر الكبار كالأخطل وليلى الأخيلية وأعشى همدان، ومثل هذا الكم الكبير من الشعر يستحق أن يأخذ حقه من الدرس والتحليل والنقد.كان افتتاح البحث بتمهيد مختصر عن سيرة الحجاج، لأن حياة الحجاج وأفعاله هي التي ألهمت الشعراء أبياتهم ودفعتهم لسبك شعرهم، ثم جرى الحديث عن المتن الشعري حول الحجاج من حيث السعة والضيق وطول نصوصها وقصرها وتوزعها على شعراء عصره، ولتيسير دراسة الشعر قسم الشعر قسمين:القسم الأول الصورة الإيجابية، والقسم الثاني الصورة السلبية، وبدئ بدراسة الصورة الإيجابية لأنها أكبر، ثم عرضت الصورتين الإيجابية والسلبية على كتب التاريخ لتلمس أوجه التشابه والاختلاف بينهما، فكانت النتيجة النهائية التي وصل إليها البحث هي أن الكفة الإيجابية رجحت كثيرا في ميزان الشعراء بينما رجحت كفة الصورة السلبية في ميزان المؤرخين.

تمهيد عن حياة الحجاج:

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعتّب[1] بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف[2]. وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي[3]، وعروة بن مسعود هو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف/٣١)، لذلك كان الحجاج يلقب بابن عظيم القريتين[4]. ولد في منازل قبيلته ثقيف في الطائف[5]. واختلف في تاريخ ميلاده فقيل سنة تسع وثلاثين وقيل سنة أربعين وقيل سنة إحدى وأربعين[6]، والراجح عند المؤرخين أنه ولد سنة إحدى وأربعين[7]. وكان والده معلماً للصبيان في الطائف، فنشأ كوالده معلماً في أول حياته[8].

ولم تكن نفس الحجاج الطموح لترضى بالعيش في تلك البلاد البعيدة عن صخب الحياة السياسية، فانتقل إلى دمشق حيث انضم إلى عسكر روح بن زنباع (ت ٨٤هـ)، ثم سار مع عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) حينما توجه لقتال مصعب بن الزبير (ت

---

(١) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب: جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن (بيروت، عالم الكتب، ومكتبة النهضة، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م) ص ٣٨٨.

(٢) انظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب ص ٣٨٦.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: أنساب الأشراف، تحقيق: محمد الفردوس العظم (دمشق، دار اليقظة العربية، ٢٠٠٠م) ١٢/٣٣٠.

(٤) انظر: المبرد، أبا العباس محمد بن يزيد: الكامل، تحقيق: زكي مبارك (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م) ٢/٤٤٨.

(٥) انظر: البكري، أبا عبيد عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا (بيروت، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) ٣/٨٨٦ مادة (الطائف).

(٦) انظر ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي: البداية والنهاية (بيروت، مكتبة المعارف) ٩/١١٩.

(٧) انظر: أبا حنيفة، أحمد بن داود الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال (بيروت، دار المسيرة) ص٢٨٢، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي (بيروت، دار بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م) ص٢٩٠، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي: مروج الذهب تحقيق: محيي الدين عبد الحميد (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) ٢/١٥٣، حيث أجمعوا أنه توفي سنة ٩٥هـ وله من العمر ٥٤ سنة فيكون مولده سنة ٤١هـ.

٨) انظر: الجاحظ: أبا عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت، دار الفكر، ط٤) ١/٢٥١.

٧٢هـ) في العراق[١].

وبدأ ظهور الحجاج تاريخياً منذ وجهه عبد الملك بن مروان من العراق إلى أهل مكة لقتال عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ) سنة اثنتين وسبعين هجرية فأتم المهمة كما أرادها عبد الملك بن مروان، وقضى على ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين للهجرة[٢]. ومنذ ذلك التاريخ والحجاج يزداد مكانة عند الخلافة الأموية إذ كافأه عبد الملك بن مروان بتوليته مكة واليمن واليمامة سنة ثلاث وسبعين هجرية ثم ضم إليه المدينة سنة أربع وسبعين هجرية[٣].

ولم تكن الحجاز وتوابعها على أهميتها الدينية لترضي غرور الحجاج فقد كان يطمح بنظره إلى أجزاء أهم من الدولة الإسلامية تسمح له بإظهار قدراته السياسية ويبرهن من خلالها على إخلاصه التام للخلافة الأموية، وتم له ما تمني فجمع له عبد الملك بن مروان العراقين (البصرة والكوفة) سنة خمس وسبعين للهجرة[٤].

وبمجرد أن تولى الحجاج العراق أخذ على عاتقه نشر الطاعة التامة للخلافة في بؤرة التمرد على الحكم الأموي (العراق)، فكانت قصة دخوله للكوفة وخطبته الشهيرة في مسجدها الجامع[٥] وما تمثل فيها من الشعر مضرب المثل في العنف والشدة، ثم بدأ من فوره بردع أهل العراق الفارين عن جيش المهلب بن أبي صفرة (ت ٨٢هـ) فأخذ في التوعد والإنذار حتى بث الرعب في قلوبهم فطاروا إلى المهلب سراعاً حتى شهد له المهلب دون أن يعرفه حينذاك فقال: " قدم العراق اليوم رجل ذكر، اليوم قوتل العدو"[٦].

ولقد ظل الخوارج هم شغل الحجاج الشاغل في بداية ولايته حتى تمكن من القضاء

---

(١) انظر: أبا العرب: محمد بن أحمد التميمي: كتاب المحن، تحقيق: يحيى الجبوري (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص١٨٣.

(٢) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري (بيروت، دار القلم، ومؤسسة الرسالة، ط٢، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) ٢/ ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٣) انظر: الطبري: أبا جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك (بيروت، دار القاموس الحديث) ٧/ ٢٠٦.

(٤) انظر: الطبري: تاريخ الطبري ٨/ ٢١.

(٥) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٣٧ و ٣٠٨، و المبرد: الكامل ١/ ٣٣٣.

(٦) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٢١٢ - ٢١٣.

عليهم سنة ثمان وسبعين للهجرة، فأجزل له عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) المكافأة، إذ ضم له خراسان وسجستان[١]. فأصبح الحجاج يلي شطر الدولة الأموية الشرقي، الشطر الأكثر خطورة وتمرداً.

ولم تكد الأمور تهدأ عند الحجاج قليلاً حتى قامت أكبر ثورة في تاريخ العراق، الثورة التي كادت أن تقصي الحجاج عن إمارته، ثورة ابن الأشعث (ت ٨٣هـ) سنة إحدى وثمانين للهجرة، تلك الثورة التي انضم إليها معظم أهل العراق من العرب والموالي. ومما زاد خطورتها انضمام القراء والفقهاء إلى صفوفها مما شق على الحجاج كثيراً. وكان بين الحجاج وابن الأشعث وقائع كثيرة انتهت بهزيمة ابن الأشعث وفراره إلي رتبيل ثم وفاته عام ثلاثة وثمانين هجرية[٢].

وبقضاء الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ثلاث وثمانين هجرية ومن قبلها على حركات الخوارج هدأت الأمور كثيراً في المشرق الإسلامي، فجعل الحجاج همه توسيع رقعة الدولة الإسلامية، فانصرف إلى الفتوحات الخارجية على أيدي قواده المشاهير من أمثال قتيبة بن مسلم (ت ٩٦هـ)، ومحمد بن القاسم (ت نحو ٩٨هـ) ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة (ت ١٠٢هـ)[٣]. ووصلت الفتوحات في عهده إلى ما وراء نهر السند[٤].

ورغم صخب الحرب وقلاقل السياسة لم يهمل الحجاج الإصلاحات الداخلية في ولايته، فهو من الأمراء القلائل الذين عرف عنهم تفقد أحوال رعيتهم بأنفسهم[٥]، وبنى مدينة "واسط" أول مدينة في الإسلام بعد عهد الصحابة[٦]. وأحل اللغة العربية محل اللغات الأخرى في أمور الدولة فنقل الدواوين إلى اللغة العربية[٧]، وضرب الدراهم والدنانير

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/٢٨٠.

(٢) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ٢/٢٨٠ - ٢٨٩. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/٢٧٧ - ٢٧٩. الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٨ - ٤٠.

(٣) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ٢/٣٠٤ - ٣٠٥.

(٤) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص٢٨٩.

(٥) انظر: الثعلبي، محمد بن الحارث: التاج في أخلاق الملوك، المنسوب خطأ للجاحظ (بيروت، دار الفكر، ودار البحار، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م) ص٢٧٩.

(٦) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان (بيروت، دار صادر) ٥/٣٥٠ مادة (واسط).

(٧) انظر: الجهشياري: أبا عبد الله محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م) ص٣٨.

بها[1]. وطالت إصلاحاته وسائل النقل فكان أول من عمل المحامل وأول من أجرى السفن المقيرة المسمرة[2].

وقد حصل الحجاج على رضا الخلافة الأموية ومباركتها لكل ما يعمل حتى إن عبد الملك بن مروان سمى أحد أبنائه "الحجاج"[3] وزوج ابنه يزيد (ت ١٠٥هـ) بابنة محمد بن يوسف أخي الحجاج[4]، وظل راضياً عنه حتى ساعة وفاته، فقال في وصاته لأبنائه: "أكرموا الحجاج، فإنه الذي وطأ لكم المنابر، وكفاكم قحم تلك القناطر"[5]، وقال لولي عهده: الوليد (ت ٩٦هـ) "وأما الحجاج فأنت أحوج إليه منه إليك"[6]. وفعلاً أكرمه الوليد حتى قال عنه بعد توليته الخلافة: "إن أمير المؤمنين - يعني عبد الملك - كان يقول: إن الحجاج جلدة ما بين عيني، ألا وإنه جلدة وجهي كله"[7].

وكما برزت سمات الحجاج السياسية منذ توليه العراق برز له حينذاك صفة أخرى أزعم أنها لا تقل عن قدرته السياسية، وهي قدرته البلاغية العالية التي مكنته منذ أول خطبة ألقاها في الكوفة من نشر الرعب في قلوب الناس وإرغامهم على الانصياع له، ومازالت الأبيات التي استشهد بها في خطبته تدور على ألسنة الناس عامتهم وخاصتهم إلى يومنا هذا. ومنذ تلك الخطبة وفصاحة الحجاج تصقل وتتجلى في أبهى صورها من خطب ورسائل وردود، والحجاج يحسن استغلالها في إشعال الحماسة في نفوس أعوانه ونشر الرعب في قلوب أعدائه والاحتجاج على خصومه وتبرئة ساحة أنصاره، وقد دعم بلاغته تلك بمحفوظات كبيرة من الشعر والأمثال العربية، فكانت استشهاداته أشبه بسياط من نار في خطب كالحمم.

---

(١) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/٢٨١.

(٢) انظر: الجاحظ: أبا عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت، دار إحياء التراث العربي) ١/٨١، والجاحظ: البيان التبيين ٢/٢٠٣.

(٣) انظر: ابن سعد: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى (بيروت، دار بيروت، ودار صادر، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م) ٢/٥٢٤.

(٤) انظر: ابن الكلبي: جمهرة النسب، ص١٢٨.

(٥) المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد: التعازي والمراثي، تحقيق: محمد الديباجي (دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م)، ص١٢٣

(٦) الجاحظ: البيان والتبيين ٣/٢٢٥.

(٧) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/٢٠٧.

هذا بالإضافة إلى ثقافة الحجاج الدينية، فقد كان حافظاً للقرآن[1]، وعده ابن حبيب (ت ٢٤٥هـ) من أشراف المعلمين وفقهائهم[2]، وهو أحد رواة الحديث[3]، روى الحديث عن سمرة بن جندب (ت ٦٠هـ)، وعبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، وأنس بن مالك (ت ٩٣هـ)، وغيرهم، وروى عنه أنس بن مالك (ت ٩٣هـ)، وقتيبة بن مسلم (ت ٩٦هـ)، ومالك بن دينار (ت ١٣١هـ)، وغيرهم[4].

توفي الحجاج بواسط سنة خمس وتسعين باتفاق معظم المؤرخين وله من العمر أربع وخمسون سنة على الأرجح، وكانت إمرته على العراق عشرين سنة[5].

المتن الشعري حول الحجاج:

الشعر ديوان العرب، والسبيل الأيسر للتعبير عن مشاعرهم، وفي بيئة اجتمعت فيها مقومات الشعر حيث العرب الأقحاح في العراق، ومحبة للشعر لا توصف أثمرت سوق المربد الشعري، ووجود شعراء أفذاذ أمثال الفرزدق (ت ١١٠هـ)، وجرير (ت ١١١هـ) ونقدة للشعر ومتذوقين أمثال عبد الله بن أبي إسحاق (ت ١١٧هـ) وأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) وقبل هذا كله وجود عامل حافز لصوغ الشعر ومحرك للقرائح ألا وهو "الحجاج بن يوسف الثقفي" فتفجرت الألسن بصوغ الشعر إما عن رضا ومحبة، أو كراهية وغضب، أو عن تملق وتودد، وتفجرت معها مواقف الطرف الآخر "الحجاج" الراضية أو الغاصبة أو المتسامحة مما زاد من سرعة دوران الرحى وزاد ما تنتجه من قصائد وأبيات معبرة عن تلك المواقف

وفي محاولة لوصف المنظومة الشعرية حول الحجاج، فإنه يتقدمها قطبا العصر الأموي وشاعرا النقائض المشهوران الفرزدق وجرير اللذان أفردا للحجاج كثيراً من القصائد

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١١٩.

(٢) انظر: ابن حبيب، أبا جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي: المحبر، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر (بيروت، دار الآفاق الجديدة) ص٤٧٥.

(٣) انظر: البخاري: محمد بن إسماعيل: التاريخ الكبير، طبع تحت مراقبة: عبد المعين خان (المكتبة الإسلامية، تركيا) قسم ٢ جـ١ ص٢٧٣.

(٤) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١١٧.

(٥) انظر: أبا حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٢٩، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص٢٩٠، المسعودى: مروج الذهب ٢/ ١٥٣.

والمقطعات، وتحدثا عنه في قصائد ومقطعات أخرى.

وديوان الفرزدق يحتوي على قصائد ومقطعات أكثر من ديوان جرير سواء من حيث عدد القصائد أو من حيث عدد الأبيات مجموعة أم من حيث تنوع موضوعات القصائد.

ففي باب المديح أفرد الفرزدق للحجاج عشر قصائد ومقطعات بلغ عدد أبياتها مائة وتسعة وستين بيتاً[1]. علاوة على مقطوعة افتتحها الشاعر ببيت في مدح الحجاج[2].

أما موضوع الرثاء فقد نظم الفرزدق في عزاء الحجاج عن المحمدين أخيه وابنه (ت ٩١هـ) قصيدة ومقطوعتين بلغ عدد أبياتها واحداً وأربعين بيتا[3]. وللفرزدق في رثاء الحجاج بن يوسف نفسه قصيدة واحدة ومقطوعة بلغ عدد أبياتهما خمسة وعشرين بيتاً[4].

أما موضوع الهجاء فقد جاء كل هجاء للحجاج في معرض مديح الفرزدق لسليمان ابن عبد الملك (ت ٩٩هـ) الذي حاول الحجاج سلبه الخلافة[5]، وله في هجائه بيت واحد في معرض قصيدة طويلة في مدح سليمان بن عبد الملك في حياة الحجاج[6]. أما بعد وفاة الحجاج فقد هجاه الفرزدق في معرض قصيدتين في مديح سليمان بن عبد الملك بلغ عدد أبيات الهجاء فيهما ثلاثة وعشرين بيتاً[7].

أما جرير الذي عرفه عبد الملك بن مروان حين قدم إليه بـ "مادح الحجاج وشاعره"[8]، فإن له قدحاً معلى وقصباً سابقاً في مدح الحجاج جعل عبد الملك بن مروان يطلب منه

---

(١) انظر: الفرزدق، همام بن غالب: شرح ديوان الفرزدق. تحقيق: عبد الله الصاوي (القاهرة، مطبعة الصاوي) ١/٨٩، ١٣٧، ٢٩٤. ٢/٤٣٥، ٥١٥، ٥٧٠، ٥٩٣، ٦٧٢، ٦٩٤. انظر: الصولي، أبا بكر محمد بن يحيى: أخبار أبي تمام. تحقيق: محمد عبده عزام. خليل محمود عساكر، نظير الإسلام الهندي (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٣، ١٤٠٠هـ-١٩٨١م) ص٢٠.

(٢) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/١٩٨.

(٣) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/١٩٠، ٢/٤٩٤. وانظر: المبرد: الكامل ٢/٤٤٩، التعازي والمراثي ص ٢٠٣.

(٤) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/٣٦٥، ٢/٥٢٩.

(٥) انظر: أبا عبيدة، معمر بن المثني: نقائض جرير والفرزدق (ليدن، بريل، ١٩٠٨م - ١٩٠٩م) ١/٣٥٣.

(٦) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/١٩.

(٧) انظر: شرح ديوان الفرزدق ٢/٦١٨ و٨٥١.

(٨) انظر: الثعلبي: التاج أخلاق الملوك ص٢٣٢.

أن ينشده مدائحه في الحجاج قبل أن يأذن له في إنشاده مديحه فيه[1]. فجرير قد أفرد خمس قصائد لمدح الحجاج بلغ مجموع أبياتها مائة وثلاثين بيتاً[2]، بالإضافة إلى قصيدتين تطرق فيهما لمدح الحجاج وإن لم يكن الحجاج موضوعهما الرئيس وهما من شعر النقائض بلغ مجموع أبيات مديح الحجاج فيهما سبعة أبيات[3].

فهذان الشاعران استوليا على القطاع الأكبر من مساحة الشعر الذي قيل في الحجاج، ثم يأتي خضم الشعر دفاقاً من كثير من الشعراء وفي مختلف الموضوعات. وقد يكون على رأس هؤلاء الشعراء من ناحية الشهرة القطب الثالث في مثلث الشعر الأموي الأخطل (ت ٩٠هـ) الذي لم يمنعه بعده عن الحجاج واستحواذه على إعجاب الخليفة الأموي من مواصلة الحجاج ومدحه بقصيدة بعث بها مع ابنه إلى العراق[4]، وهي مكونة من خمسة عشر بيتاً[5].

وكان للرجز أيضا دوره فيما قيل حول الحجاج من شعر فهذا أبو الرجز العجاج (ت ٩٠هـ) يطيل المديح للحجاج بأرجوزتين بلغ عدد أبياتها مائة وواحداً وخمسين بيتاً[6]، ولأبي النجم العجلي (ت ١٣٠هـ) أرجوزة في مدح الحجاج بقي منها ثلاثة أبيات رجزية[7].

ولأعشى همدان (ت ٨٣هـ) ثلاث قصائد في الحجاج، اثنتان منها في هجاء الحجاج تتكونان من تسعة وعشرين بيتاً بالإضافة إلى افتتاحه قصيدة ببيتين في هجاء

---

(١) انظر: الثعلبي: التاج في أخلاق الملوك ص٢٣٤.

(٢) انظر: جرير بن عطية بن الخطفى: ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه (القاهرة، دار المعارف، ط٣) ١/١٣٦، ٢٤٣، ٣٧٢، ٣٩٩. ٢/٧٢٧.

(٣) انظر: ديوان جرير ٢/٨٥٢ - ٨٨٠.

(٤) انظر: أبا الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين: الأغاني، تحقيق: لجنة من الأدباء (بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م) ٨/٢٩٠.

(٥) انظر: الأخطل، أبا مالك غياث بن غوث التغلبي: شعر الأخطل، صنعة: السكري رواية عن ابن حبيب، تحقيق فخر الدين قباوة (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ١/٣٩٩.

(٦) العجاج، عبد الله بن رؤبة: ديوان العجاج، رواية الأصمعي وشرحه، تحقيق: عزة حسن (بيروت، حلب، دار الشرق العربي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ص ١٢٨ و٣٥٣.

(٧) انظر: أبا النجم العجلي، الفضل بن قدامة، ديوان أبي النجم العجلي، تحقيق: علاء الدين آغا (الرياض، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ص٩٣.

الحجاج[1]، وله قصيدة واحدة في مديح الحجاج بلغ عدد أبياتها ثلاثة وعشرين بيتاً[2].

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن الحجاج في دواوينهم، وإن كانوا أقل من السابقين الشاعرة المشهورة ليلى الأخيلية (ت ٨٠هـ) التي قدمت على الحجاج ومدحته بثلاث مقطعات بلغ عدد أبياتها خمسة عشر بيتاً[3]. وعبد الله بن الزَّبير الأسدي (ت نحو ٧٥هـ) له مقطوعتان في الحجاج بلغ عدد أبياتها أحد عشر بيتاً[4]. وأخيراً الحارث بن خالد المخزومي (ت نحو ٨٠هـ) الذي هجا الحجاج بمقطوعة تتكون من ثلاثة أبيات[5].

أما خارج نطاق دواوين الشعراء فقد تناثرت مقطعات كثيرة بين طويلة وقصيرة تحدثت عن الحجاج إما سلباً وإما إيجابياً، وقد بلغ عدد أبياتها - فيما اطلعت عليه من مصادر - ثلاثمائة وعشرين بيتاً توزعتها تسع وسبعون مقطوعة لثلاثة وستين شاعراً. فإذا أضفنا عدد هذه الأبيات لأبيات الدواوين التي تحدثت عن الحجاج يكون مجموع الشعر الذي دار حول الحجاج تسع مائة وتسعة وسبعين بيتاً، منها سبعمائة وسبعة وأربعون بيتاً ترسم صورته الإيجابية ومئتان واثنان وثلاثون بيتا تصور الجانب السلبي في هذه الشخصية كما يراها قائلوها من الشعراء.

وهناك شعر أكثر دار حول الحجاج إلا أنه ضاع، تدل على ذلك إشارات وردت في كتب التراث مثل شعر علي بن ثابت بن قيس الأنصاري في رثاء محمد بن الحجاج (ت ٩١هـ)، وقد علق الحجاج على الشعر بقوله: "مرثيتك في ابنك أجود"[6]، لكن لا يوجد لأبياتها أثر فيما اطلعت عليه من مصادر. ومما يدل على ضياع بعض الشعر الذي قيل في الحجاج ما أورده ابن أعثم (ت ٣١٤هـ) في فتوحه في أثناء حديثه عن غضب جند المهلب

---

(١) انظر: أعشى همدان: عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، ديوان أعشى همدان وأخباره، تحقيق: حسن أبو ياسين (الرياض، دار العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص٧٣، ١١٢، ١٦٣.

(٢) انظر: ديوان أعشي همدان وأخباره ص١٠١.

(٣) انظر: ليلى الأخيلية، ليلى بنت عبد الله بن الرحال: ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق: خليل العطية، وجليل العطية، (بغداد، دار الجمهورية، ط٢، ١٩٧٧م) ص٦٣، ١١٦، ١٢٠.

(٤) انظر: عبد الله بن الزَبير الأسدي: شعر عبد الله بن الزبير، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) ص٥٢، ٥٣.

(٥) انظر: الحارث بن خالد المخزومي: شعر الحارث بن خالد، تحقيق: يحيى الجبوري (النجف، مطبعة النعمان ط١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) ص ٤٦ - ٤٧.

(٦) انظر: المبرد: التعازي والمراثي ص٢٠٢ - ٢٠٣.

بن أبي صفرة من اتهامات الحجاج له، قال: "فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمي (ت ٩١هـ) يقول في ذلك أبياتاً مطلعها:

ليتَ شِعْري وَلِلأمورِ قَرَارٌ هلْ بلغْنَا مدى رِضا الحجاج

إلى آخرها"[١]، ولم أجد لبقيتها ذكرا. فيما اطلعت عليه من مصادر.. وقد يكون هناك شعر أكثر ضاع لكن لم تبق حتى إشارات تدل عليه. وفيما بقي من الشعر كفاية للباحث لتلمس أهم سمات صورة الحجاج في شعر معاصريه.

وعلى الرغم من كثرة الشعر الذي قيل في الحجاج، فإن هناك أمرين يجب الوقوف عليهما حول هذا الشعر، أولهما أنه على رغم كثرة أبيات المديح في الحجاج، فإن المصادر توحي أن الحجاج ليس بالشخص الذي يجمع الشعراء حوله ويصطنعهم. ففي أول قدومه العراق أميراً منع الشعراء من الدخول إليه، وحجب عنهم عطاءه، حتى وجهه عبد الملك بن مروان إلى خلاف ذلك، ففتح لهم أبوابه[٢]، ولكنه لم يحرص على مديحهم أو يشتريه، فالمساور بن هند (ت نحو ٧٥هـ). الذي عقد الرسول صلي الله عليه وسلم لوالده على رياسة غطفان. لما قدم على الحجاج لم يسأله الحجاج مدحه، ونعى عليه قول الشعر واستنكره[٣]. وليلى الأخيلية. وهي شاعرة معروفة. لما قدمت على الحجاج مادحة بقصيدتها المشهورة التي أدهشت الحجاج، كره الحجاج أن تتمادى في مديحه، فقال: "حسبك!"، قالت: "إني قد قلت أكثر من هذا". قال: "حسبك! ويحك حسبك!"، ثم أمر بجائزتها فوراً[٤] كأنما يمنعها من الاستمرار في المديح. وقد يكون شعر المديح اختباراً للولاء عند الحجاج كما صنع حين أراد أن يولي يزيد بن الحكم (ت نحو ١٠٥هـ) كورة فارس فقال له: "أنشدني بعض شعرك" علق على هذا صاحب الأغاني:

---

(١) انظر: ابن عثم، أبا محمد أحمد الكوفي، كتاب الفتوح (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ٧/٢٠-٢١.

(٢) انظر: ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد: التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، (بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٦م) ٢/١٠٩.

(٣) انظر: النهشلي: أبا محمد عبد الكريم بن إبراهيم: اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق: محمود شاكر القطان (القاهرة، دار المعارف، ط١ ١٩٨٣م) ص٨١-٨٢.

(٤) انظر: أبا علي القالي، إسماعيل بن القاسم: الأمالي، مراجعة: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م) ١/٨٧.

"وإنما أراد أن ينشده مديحاً له". فانطلق يزيد بن الحكم ينشد قصيدة في الفخر بآبائه وأجداده مما أغضب الحجاج عليه. فالحجاج يعرف قيمة الشعر عند العربي، ولا يخرج عما تعارف عليه الناس خاصة في بيئة يعلو فيها صوت الشعر كثيراً حتى إنه وجه أحد عماله، واسمه شجرة، فقال: يا شجرة، إذا أتاك أمرؤ ذو حسب ولسان فاشتر عرضك منه"[1]. لذلك أعطى الحجاج الشعراء الذين مدحوه و إن لم يكن حريصاً على مديحهم. ومسايرة من الحجاج لطبيعة البيئة التي يعيش فيها والتي تحسب للشعر ألف حساب، كان الحجاج يرحب بهجاء أعدائه أكثر من ترحيبه بمديح مادحيه كما رحب بهجاء عبيد بن موهب للحارث بن خالد المخزومي[2]، وكما أمر الفرزدق أن يهجو عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة فأفحش عليه[3]، وكان يستمتع بترديد أبيات حميد الأرقط في ابن الأشعث ويوازن بينها وبين أبيات أعشى همدان في هجائه مفضلاً الأولى على الأخرى[4].

والأمر الآخر، أن الحجاج رجل فصيح مشهود له بالفصاحة حتى قال فيه أبو عمرو بن العلاء: "لم أر قَرَوِيَّيْن أفصح من الحسن (ت ١١٠هـ) والحجاج"[5]. وكذلك قال عنه رؤبة بن العجاج[6] (ت ١٤٥هـ). وتمخضت فصاحته عن علو شأنه في الخطابة حتى عُدَّ ثالث الخطباء في عصره، بل قُدّم على عبد الملك بن مروان، نفسه في مجلس عبد الملك بن مروان[7]. حتى قال مالك بن دينار (ت ١٣١هـ) ـ وهو من المعادين للحجاج ـ: " ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع له أهل العراق وما صنع بهم فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج"[8]. وقد دعم هذه الفصاحة عقل ذكي وفطنة كبيرة، فعتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث وكان من ذوي الرأي والدهاء[9].

---

(١) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٢/ ٢٩٠ـ٢٩١.

(٢) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١١/ ٣٢٩ـ ٣٣٠.

(٣) انظر: الجاحظ، أبا عثمان عمرو بن بحر: كتاب البغال، ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م) ٢/ ٢١٦.

(٤) انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٤١.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ١٦٣.

(٦) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٢١٩.

(٧) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٣٤٦.

(٨) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٣٩٤.

(٩) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٣١٩.

قال عن الحجاج: "ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج بن يوسف وإياس بن معاوية (ت ١٢٢هـ) فإن عقولهما ترجح على عقول الناس جميعاً"[١]. وهو يجمع إلي ذلك علماً بالشعر وحفظاً له يتضح من خلال استشهاداته المصيبة، فلا تكاد خطبة له مهما قصرت تخلو من استشهادات شعرية مناسبة، ويكفي شاهداً على ذلك استشهاداته في خطبته الشهيرة حينما وصل الكوفة، والتي أصبحت بعض أبيات الاستشهاد فيها مضرب المثل عند العامة والخاصة. وهذا كله يقود إلى مستوى الشعر الذي قيل أمام الحجاج، فهو قد قيل أمام أمير قوي فصيح نبيه عالم بالشعر ليس بالحريص على المدح، لذلك فالحجاج لا ينخدع بالمديح ولا يغريه تتابع الصفات له أو على أعدائه، فحين أنشد أعشى همدان مدحته فيه وهجاءه لابن الأشعث أجمع من في مجلسه على أنه أحسن فيها، فقال الحجاج: لا لم يحسن، وبين أنه أراد بها التأسف على ظهوره . أي الحجاج . وتحريض قومه عليه[٢].

وكان الحجاج حريصاً على مستوى الشعر الذي يقال فيه، ينقده بمجرد أن يقال أمامه، فجرير عند ما أنشد الحجاج مادحاً[٣]:

قُلْ لِلْجَبَانِ إِذا تأخرَ سَرْجُهُ هلْ أنتَ مِن شَرَكِ المنيةِ نَاجِ.

قال له الحجاج: "جرأت عليّ الناس يا ابن اللخناء". قال جرير معتذراً: "والله ما ألقيت لها بالا أيها الأمير إلا وقتي هذا"[٤]. فالشاعر لم يتنبه إلى ما تعود عليه أبياته من معان لكن الحجاج تنبه لها مباشرة. والفرزدق لما قال[٥]:

وَمَنْ يَأْمَنِ الحجاجَ والطَّيرُ تَتَّقي عُقوبتَهُ إلا ضعيفٌ عزائمُه

قال له الحجاج: "ما عملت شيئاً إن الطير تنفر من الصبي والخشبة"[٦]. فأبدلت بعد ذلك

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٩٩ . ١٠٠، و انظر: ١/ ٢٧٥.

(٢) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/ ٦٠.

(٣) ديوان جرير ١/ ١٣٧.

(٤) انظر: ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان (القاهرة، دار الفكر) ١/ ٧٦.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٧٦٣.

(٦) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين، تحقيق: على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، مطبعة عسى البابي الحلبي وشركاه، ط٢) ص١٠٧.

بـ " الجن" كما في الديوان، وليلى الأخيلية لما أنشدته قولها[1]:

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الذي بِهَا غُلامٌ إذا هَزَّ القناةَ سَقَاهَا

قال الحجاج موجهاً: "لا تقولي غلام، قولي: همام"[2].

وبالمقابل يثني الحجاج على الشعر الجيد الذي يقال أمامه، فلما رثى الفرزدق محمد بن يوسف، ومحمد بن الحجاج، قال له الحجاج في البداية، إذ لم يجد ما يعزيه في شعره: "لو زدتني"، فلما زاده قال الحجاج موضحاً قصور هذا الشعر في التعبير عن مكنون نفسه قال: "ما صنعت شيئاً إنما زدت في حزني" فلما زاده ما أشفى غليله، اعترف الحجاج بتفوق هذا الشعر فقال:"الآن"[3]، ولما قالت ليلى الأخيلية[4]:

إذَا سَمِعَ الحجاجُ رِزَّ كتيبةٍ أعدَّ لَهَا قَبْلَ النُزُولِ قِرَاهَا[5]

قال الحجاج: "قاتلها الله، والله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها...

والله إني لأعد للأمر عسى ألا يكون أبدا "[6]. بل إن الحجاج لشدة حرصه على دقة الحكم على ما يقال فيه من الشعر كان يلجأ أحياناً إلى من حوله ممن يتلمس فيه معرفة بالشعر ليعينه على الحكم مباشرة أمام الشاعر[7].

فالحجاج من ناحية لم يكن حريصاً على استجلاب مديح الشعراء، وملكته النقدية المتيقظة هيبت الشعراء فلم يجرؤ على مدحه إلا الفحول الذين يثقون بقدرتهم على الإتيان بما يتناسب وذوقه الفصيح لذلك استأثر فحول شعراء ذلك العصر برسم صورته الإيجابية من أمثال ليلى الأخيلية والعجاج والأخطل والفرزدق، وجرير.

الصورة الإيجابية:

إذا تأمل الدارس موروث الشعر الذي دار حول الحجاج فإنه يجده قريباً من ألف بيت، وهذا الشعر دار في محاور شتى، وحول موضوعات مختلفة إلا أنه يمكن أن يقسم إلى

---

(١) ديوان ليلى الأخيلية ص١٢١.

(٢) المبرد: الكامل ٢٦٣/١.

(٣) انظر: المبرد: الكامل

(٤) ديوان ليلى الأخيلية ص ١٣١.

(٥) الزر: الصوت تسمعه من بعيد.

(٦) أبو علي القالي: الأمالي ٨٧/١.

(٧) انظر: أبا الفرج الأصبهاني: الأغاني ٢٣٣/١١.

قسمين كبيرين، الصورة الإيجابية والصورة السلبية، ولأن الصورة الإيجابية للحجاج أكبر بكثير من الصورة السلبية فإنها تأخذ الأولوية في الدراسة.

الناحية الحربية:

والصورة الإيجابية للحجاج لها وجوه مختلفة وزوايا متعددة إلا أن اللافت للنظر أن التركيز فيها كان على الناحية الحربية في شخصية الحجاج، حيث توقف الشعراء عندها كثيراً مفصلين في أيام الحجاج، محللين لأسبابها ونتائجها، مادحين للحجاج وجنده، ذامين أعداءه وقوادهم، وقد تكون ظروف إمارة الحجاج لمنطقة حافلة بالقلاقل والاضطرابات جعلته يخوض كثيراً من المعارك ويقف طويلا في وجوه أعداء الدولة الأموية، إذ ما يكاد عدو يختفي حتى يبرز آخر، هي التي ألهمت الشعراء أبياتهم ووفرت لهم مادة شعرية قريبة لروح العصر يمتحون منها شعراً عذباً زلالاً كما يشاءون.

إخماد الحجاج ثورة ابن الأشعث:

وإذا أمعن الباحث النظر في الشعر الذي قيل في أيام الحجاج ومعاركه استوقفه التركيز الكبير على أيام الحجاج مع ابن الأشعث فقد أكثر الشعراء من ذكر تلك الأيام وسير معاركها ونتائجها ذامين مادحين مما يشعر الباحث بأهمية تلك الأيام وخطورتها.

فالعجاج لم يمدح الحجاج إلا بأرجوزتين أفردهما كلتيهما للحديث عن انتصار الحجاج على ابن الأشعث، أولاهما بلغ عدد أبياتها مائه وسبعة عشر بيتاً رجزياً، والأخرى بلغت أبياتها أربعة وثلاثين بيتاً رجزياً[1]، والفرزدق جعل أطول مدائحه في الحجاج للحديث عن انتصاره في هذه الحرب فصاغ فيها قصديتين، بلغ طول أولاهما ثمانين بيتاً، والأخرى بلغت تسعة وثلاثين بيتاً[2]، وصاغ جرير حول هذا الموضوع قصيدة بلغت ثمانية عشر بيتاً[3]، ومن الطريف أن أحد أنصار ابن الأشعث صاغ قصيدة في مدح الحجاج لانتصاره على ابن الأشعث وهو أعشى همدان بلغت أبيات قصيدته تلك ثمانية وثلاثين بيتاً[4]، وجرى ذكر

---

(١) انظر: ديوان العجاج ص٣٥٣، و ص١٢٨.

(٢) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/ ٢٩٤، و٢/ ٦٩٤.

(٣) انظر: ديوان جرير ٢/ ٧٢٧.

(٤) انظر: ديوان أعشى همدان وأخباره ص١٠١.

هذه الحرب في مقطعات أخرى لأمثال ليلى الأخيلية[٥] وحميد الأرقط [١].

وقد فصَّل الشعراء في هذه الحرب تفصيلاً طويلاً، إلا أن اللافت للنظر في هذا الوصف التركيز الكبير على وصف جيوش ابن الأشعث والسخرية منها وذكر أصحابه والاستهزاء بهم، بينما يظهر الاختصار الواضح في وصف جيوش الحجاج والإشادة بقواده وأصحابه، وقد يكون هذا متمشياً مع رغبة الحجاج التي تحرص على هجاء الأعداء والتنقيص منهم لاستخدام هذا الشعر وسيلة للهجوم، أكثر من حرصه على شعر المديح الذي قد يراه لا يضيف له جديداً.

فأصحاب الحجاج وجنده اختصر "العجاج" صفتهم فقال: [٢]

واللهُ سمَّى نَصْرَهُ الأَنْصَارَا

فهم كالأنصار، فكما أن الأنصار على حق حينما آزروا الرسول صلى الله عليه وسلم ونصروا دين الإسلام، كذلك جند الحجاج على حق حينما آزروا الحجاج ونصروا دين الإسلام.

وكما جعل العجاج أصحاب الحجاج كالأنصار جعلهم الفرزدق كأصحاب بدر، وجعل الملائكة تساندهم كما ساندت أهل بدر[٣]:

مَلائِكَةً مِن يَجْعَلِ اللهُ نَصْرَهُم ... لَهُ يَكُ أَعْلَى فِي القِتَالِ وَأَصبَرا

رَأَوا جِبْرَئِيلَ فِيهِمُ إذ لَقُوهُمُ ... وَأَمْثَالَهُ مِن ذي جَنَاحَينِ أَظْهَرَا

ثم عاد الفرزدق يشبههم بأهل بدر مرة أخرى فقال[٤]:

لَقِيتُمْ مَعَ الحجاجِ قَوماً أَعِزَّةً ... غِلاظاً على من كانَ بالدِّينِ أَحْوَرَا

بِهِمْ يومَ بَدْرٍ أَيَّدَ اللهُ نَصْرَهُ ... وَسَوَّى مِنَ القَتْلَى الرَّكِيَّ المُعَوَّرَا

وفي حرب الحجاج لابن الأشعث تلك الحرب التي انحاز فيها معظم أهل العراق إلى

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٤١ ـ ٤٢.

(٢) ديوان العجاج ص ٣٦٥.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٣٠٠.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٣٠١.

ابن الأشعث حتى استعان الحجاج بجيوش أهل الشام مما جعل الشعراء يعمدون للموازنة بين أهل البلدين فقال الفرزدق [1]:

فَلَمَّا رأى أَهْلُ النِّفَاقِ سِلاحَهُم ... وَسِيماهُمُ كَانوا نَعَاماً مُنَفَّرا
كَأَنَّ صَفِيحَ الهنْدِ فوقَ رُؤوسِهِم ... مَصَابيحُ لَيْلٍ لايُبَالِينَ مِغْفَرَا[2]
بِأَيْدي رِجَالٍ يَمْنَعُ اللّهَ دِيْنَهُمْ ... بِأَصْدَقَ مِنْ أَهْلِ العراقِ وأَصْبَرَا

وقال أيضاً[3]:

جُنُوداً دَعَا الحجاجُ حِينَ أَعَانَهُ ... بِهِمْ إِذْ دَعَا ربَّ العِبَادِ لِيَنْصُرا
بِشَهْبَاءَ لم تُشْرَبْ نِفَاقاً قُلُوبُهُم ... شَآمِيَةٍ تَتْلُوا الكِتَابَ المُنَشَّرا

فالشاعر يوازن بين أهل العراق وأهل الشام جاعلاً هذه الموازنة سبيله لتفضيل أهل الشام وذم أهل العراق حيث وصفهم بالمنافقين صراحة في الأبيات الأولى ووصفهم بهذه الصفة بالتلميح في الأبيات الأخيرة، وجعل أهل الشام هم أهل التدين وقراءة القرآن.

وهذا الوصف السريع لجيوش الحجاج التي خرجت لحرب ابن الأشعث يقابله وصف مسهب لجيوش ابن الأشعث، فما يكاد شاعر يمدح الحجاج لانتصاره على ابن الأشعث حتى يعرج على وصف جيش ابن الأشعث ساخرا متشفيا. فهذه الجيوش هي بذرة التمرد وثمرة الاحتجاج، وهي التعبير الفعلي عن آراء قوادها وأقوالهم فالفرزدق لم يرحمهم من لسانه الحاد، فوصف جيشه بقوله[4]:

عَجَبْتُ لِنَوكَى مِنْ نِزارٍ وحَيْنِهِمْ ... رَبِيعَةَ والأَحْزابِ مِمَّنْ تَمَضَّرَا
وَمِن حَيْنِ قَحْطَانِي سَجِسْتَانَ أَصْبَحُوا ... عَلَى سَيِّءٍ مِنْ دِيْنِهِم قَدْ تَغَيَّرَا
وَهُمْ مِائتا أَلْفٍ وَلا عَقْلَ فِيهِمُ ... وَلا رَأْيَ مِنْ ذِي حِيلَةٍ لَوْ تَفَكَّرَا

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٠٠.

(٢) مغفر: نوع من الدروع يلبس على الرأس تحت البيضة.)

(٣) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٠١.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٩٦.

يَسُوقُونَ حَوَّاكَاً لِيَسْتَفْتِحُوا بِهِ ... عَلَى أَوْلِيَاءِ اللهِ مِمَّنْ تَخَيَّرَا
عَلَى عُصْبَةٍ عثمانُ مِنْهُمْ، وَمِنْهُمُ ... إمامٌ جَلا عَنَّا الظَّلامَ فَأَسْفَرَا

فهم مجموعة من الحمقى ممن لم يوفقوا للفلاح من قبائل نزار وربيعة ومضر وقحطاني سجستان، أساءوا إلى دينهم بخروجهم على طاعة الإمام، وكان عددهم مائتي ألف إلا أنه ليس فيهم رجل ذو عقل وتدبر يردعهم عما هم بصدده، وكان قائدهم حواكاً فهو لا يحسن قيادة الجنود، وخرجوا لحرب أولياء الله الذين منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه (ت ٣٥هـ) ومنهم خليفة المسلمين. وهذه المقطوعة في وصف جيش ابن الأشعث متميزة لأنها مع السخرية اللاذعة أعطت معلومات عن جيش ابن الأشعث من ناحية عناصر الجيش وعدده وقائدة والهدف من خروجه.

ولم يرحم ما دحوا الحجاج المنهزمين من أعداء الحجاج، إذ سخر الفرزدق من فلول الجيش المنهزمة من أصحاب ابن الأشعث سخرية لاذعة، فهم أعداء الأمير لذا من حقه الاستهتار بهم ما شاء، قال[1]:

أَظُنُّ بناتِ القومِ كلَّ خَبِيَّةٍ ... سَيَمْنَعْنَ مِنْهُمْ كُلَّ وُدٍّ وَنَائِلِ
فَبَدِّلَهُمْ ما في العِيابِ إذا انْتَهوا ... إليكنَّ واسْتَبْدَلْنَ عَقْدَ المَحَامِلِ[2]
سُيُوفَ نَعَامٍ غَيرَ أنَّ لِحَاهُمُ ... عَلَى ذَقَنِ الأَحْنَاكِ مِثْلُ الفَلائِلِ[3]
عَسَى أنْ يَذُدْنَ الناسَ عَنْكُمْ إذا التَقَتْ ... أَسَابِيٌّ مُجْرٍ لِلْقِتَالِ وَنَازِلِ[4]
وَمَا القَومُ إلا مَنْ يُطَاعنُ في الوغَا ... وَيَضْرِبُ رأسَ المُسْتَمِيتِ المُنَازِلِ

فزوجاتهم سيمتنعن عليهم إذا عادوا، لأنهم ليسوا بالرجال، وسيلبسونهم ملابسهن لأنهم أشبه بالنساء، وإمعاناً في إذلالهم يجعل نساءهم هم الرجال الذين يحملون السيوف، تلك السيوف التي ما كانت إلا مع نعام شارد، عسى أن تفيد في يد

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٩٦.
(٢) العياب: حقائب الثياب.
(٣) الفلائل: الشعر المجتمع.
(٤) أسابي: الطرق من الدم.

نسائهم فيذدن عنهم، فهم ليسوا رجالاً، لأن علامة الرجل هي الضرب بالسيوف، وتلك ليست فيهم.ويمعن الفرزدق في السخرية، ولا يكتفي بجعلهم نساء وزوجاتهم الرجال حين قال مخاطباً الحجاج[1]:

فِدًى لَكَ أُمِّي اجْعَلْ عَلَيْهِمْ عَلامةً ... وَحَرِّمْ عَلَيْهِمْ صَالِحاتِ الحَلائلِ
نُزَيِّلُ بَينَ المؤمنينَ وَبَيْنَهُمْ ... إِذَا دَخَلُوا الأَسْواقَ وَسْطَ المَحَافِلِ
فَلا قَومَ شَرٌّ مِنْهُمُ غَيْرَ أَنَّهُمْ ... تَظُنُّهُمُ أَمْثَالَ تُرْكٍ وكَابِلِ
وَلَيْتَ لِحَاهُمُ كُنَّ تَحْتَ ---- ... وَبَاعُوا سُرَيْجِياتِهِمْ بِالمَغَازِلِ

فهو يريد منه أن يسمهم بوسم العبيد حتى لا يتزوجوا الحرائر، وحتى لا يخالطوا الأحرار في الأسواق، فهم أشبه بالترك وأهل كابل من الأعاجم إلا أنهم أكثر منهم شراً، ثم يعود ليسخر منهم ومن لحاهم التي لا تدل على رجولة فما كان أحرى بهم أن يبيعوا سيوفهم لأنهم لا يستخدمونها ليشتروا بها المغازل فقد تكون أنفع لهم.

والفرزدق يمعن أكثر في السخرية من جنود ابن الأشعث حتى وصف الصرعى والقتلى منهم داخل ميدان المعركة بعد انتهائها بنصر الحجاج بن يوسف، ومما زاد المنظر تشفياً أن جاء على صورة امرأة تبحث عن زوجها بين القتلى والجرحى[2]:

كَأَنَّ عَلَى دَيْرِ الجَمَاجِمِ مِنْهُمُ ... حَصَائدَ أو أَعْجَازَ نَخْلٍ تَقَعَّرَا
تَعَرَّفُ هَمْدَانِيَّةٌ سَبَئِيَّةٌ ... وتُكْرِهُ عَيْنَيْهَا عَلَى مَا تَنَكَّرَا
رَأَتْهُ مَعَ القَتْلَى وَغَيَّرَ بَعْلَهَا ... عليها تُرَابٌ في دَمٍ قَدْ تَعَفَّرَا
أَرَاحُوهُ مِنْ رَأْسٍ وَعَيْنَيْنِ كَانَتَا ... بَعِيدَينِ طَرْفاً بِالخِيانَةِ أَحْزَرَا[3]
مِنَ النَّاكِثِينَ العَهْدَ مِنْ سَبَئِيةٍ ... وَإِمَّا زُبَيْرِيٌّ مِنَ الذِّئبِ أَغْدَرَا

فقد أعطى أولاً وصفاً عاماً لميدان المعركة بعد الهزيمة فالأعداء على أرض دير الجماجم كأنهم جذوع نخل مقطعة وقد فارقوا الحياة، وظهرت في الميدان امرأة من

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٩٦-٦٩٧.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٠٠-٣٠١.

(٣)أحزرا: تنظر نظرا شديدا إلى الخيانة.

همدان تبحث عن بعلها، فتراه مقتولاً تنكره عيناها لما تغير من وقع التراب والدم عليه، وقد قطع رأسه، وجميل من الشاعر هنا قوله "أراحوه" فجيش الحجاج كأنما أسدى إليه معروفاً بقتله، وهذا الهمداني لا يخرج عن كونه من السبئية الذين تسببوا بمقتل عثمان -رضي الله عنه- أو من الزبيرية الذين حاربوا عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وكلاهما أعداء للدولة، والشاعر بهذا البيت يقدم العذر للحجاج في قتلهم.

ولم يكتف الشعراء بهذا الوصف العام للجيوش من الفريقين بل تعمقوا أكثر فعمدوا إلى الحديث عن القواد والأبطال من الفريقين وأولى الناس بالإشادة في نظر الشعراء المادحين هو الحجاج القائد الأعلى لهذه الحرب فالفرزدق (ت ١١٠هـ) في لفتة ذكية منه دمج بين مدح الحجاج والتذكير بأصل جيش ابن الأشعث (ت ٨٣هـ) ليسقط حجج الثاني، ويقدم العذر للأول[١]:

رَدَدتُم عَلَيْنَا الخيلَ والتُرْكُ عِنْدَكُم ... تَحَدَّى طِعَاناً بِالأَسِنَّةِ أَحْمَرَا
إلى محِكٍ في الحربِ يَأبَى إذا التَقَتْ ... أَسِنَّتُها بِالمَوتِ حَتَّى يُخَيَّرَا[٢]
وَلَمَّا رَأَى اللهُ الذي قد صَنَعْتُمُ ... وَأَنَّ ابنَ سَيْبُخْتَ اعْتَدَى وَتَجَبَّرَا
رَمَاكُمْ بِمَيْمُونِ النَّقِيبَةِ حَازِمٍ ... إذا لم يُقَمْ بِالحقِ للهِ نَكَّرَا
أَخَا غَمَرَاتٍ يَجْعَلُ اللهُ كَعْبَهُ ... هو الظَّفَرُ الأَعْلَى إذا البَأْسُ أَصْحَرَا

فهذا الجيش الذي يحارب الحجاج إنما هو جيش بعث لحرب الكفار من الترك ولسوء تدبير قائده ترك الكفار إلى قتال المسلمين، فقيض الله لهؤلاء العصاة محك في الحرب لا يقهر، ميمون النقيبة، يغضب لله، إلى آخره من صفات القائد العسكري الناجح التي أضفاها الشاعر على الحجاج، والملاحظ على هذا المديح أنه يركز على مدح الحجاج وحده مظهراً قدراته الفردية في مواجهة جيش ابن الأشعث كله،وكذلك صنع العجاج (ت ٩٠هـ) فقال[٣]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٢٩٥.

(٢) المحك: المتمادي في اللجاجة عند المساومة والغضب.

(٣) ديوان العجاج ص ١٣١.

بِلَجَـــبٍ عَـــرْضٍ يُبَـــاري عَرْضَـــا فَوَجَـــدُوا الحجـــاجَ يَـــأْبَى الهَـــضَّا[1]
لا فَانِيَّـــــاً ولا حَـــــدِيثاً غَـــــضَّا وَمِـــنْ صَـــرِيحِ الأَكْـــرَمِينَ مَحْـــضَا
ثَبْتـــاً إِذَا كَـــانَ المَقَـــامُ دَحْـــضَا وَلِلْجُيُـــــوشِ قَـــبْلَهُمْ مِهَـــضَّا[2]

فجيش ابن الأشعث كله وجد الحجاج قوياً متوسط العمر صريح الأصل ثابت الجنان في المعارك، كأنما الذي يباشر القتال هو الحجاج وحده.

أما أصحاب الحجاج، فكما اختصر الشعراء في وصف جيوشه اختصر الشعراء في وصف أصحابه وقواده. فلم ينص الشعراء إلا على اسمي قائدين من قواده فقط: أحدهما "سفيان بن الأبرد الكلبي" مدحه أعشى همدان (ت ٨٣هـ) فقال[3]

وَكَـرَّتْ عَلَيْنَـا خَيـلُ سُـفْيَانَ كَـرَّةً بِفُرْسَـــانِهَا والـــسَّمْهَرِيِّ مُقَـــصَّدا
كُهُـولٌ وَمُـرْدٌ مِـن قُـضَاعَةَ حَـولَه مَـسَاعِيرُ أَبْطَـال إذا النَّكْسِ عَـرَّدا[4]
إِذَا قَـالَ شُـدُّوا شَـدَّةً حَمَلُـوا مَعـاً فَأَنْهَـــلَ خِرْصَـــانَ الرِّمَـــاحِ وَأَوْرَدا

فهو يمدحه بحسن قيادته للخيالة ممن يحملون أفضل السلاح ويتحلون بالقوة والشباب، ومع ذلك لا يخرجون عن طوع سفيان إذ يتلقى جنده أوامره بدقة فيحملون حملة واحدة تسقي رماحهم دماء الأعداء. ومدح "سفيان" أيضاً الفرزدق[5] كما مدح قائد آخر من أصحاب الحجاج هو الحكم بن أيوب الثقفي (ت نحو ٩٧هـ) صهر الحجاج، فقال فيه الفرزدق:[6]

رَأَيـتُ ابـنَ أَيـوبٍ قَـدْ اسْـتَرْعَفَتْ بِـهِ لَـكَ الخيـلُ مـن خَمْـسِينَ أَلْفـاً وَأَكْثَـرا[7]
عَلَـى صَاعِـدٍ أَوْ مِثْلِـهِ مِـن رِبَاطِـهِ إذا دَارَكَ الـرَّكْضُ المُغِيـرونَ صَـدَّرا

---

(١) اللجب: الجيش الكثير الأصوات. العرض: الجبل. يباري: يعارض. الهض: الكسر.
(٢) الدحض: أي كثير الزلق لا يثبت عليه. مهضا: كاسرا منتصرا.
(٣) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٠٣.
(٤) النكس: الضعيف. عرد: هرب من ميدان المعركة.
(٥) انظر: شرح ديوان الفرزدق ٣٠١/١.
(٦) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٩/١.
(٧) استرعفت: تقدمت.

فهو قد هجم على رأس خمسين ألفاً أو أكثر من الفرسان يتسابقون للوصول للعدو والقضاء عليه.

ومن الملاحظ أن تعداد أصحاب الحجاج وقواده ووصف جيوشه المقاتلة في المعارك كان قليلاً جداً إذا ما قورن بتعداد أعدائه وتسميتهم أو وصف جيوشهم، حقيقة أن الحجاج هو الذي يتولى إعداد الجيوش إذ يقترح عددها وعدتها، ويقوم بالإنفاق عليها بما يناسب الحال ثم يختار القادة بنفسه ويعطي لهم الأوامر، وهو بصيته وقوته يجعل الجند في طاعة قائد المعركة إذ لا تسامح منه يعرف مع العاصين والفارين، إلا أن إغفال ذكر القادة بهذه الطريقة قد يعود إلي حرص المادحين أن يتقربوا للحجاج بإرجاع سبب النصر له وحده بعد الله سبحانه وتعالى كما قال الفرزدق[1]:

فَمَنْ يَمْنُنْ عليكَ النَّصْرَ يَكْذِبْ سِوَى اللهِ الذي رَفَعَ السَّحَابا

وكما قال أعشى همدان[2]:

وَمَا زَاحَفَ الحجاجُ إلا رَأَيتَهُ مُعَاناً مُلَقَّى للفُتُوحِ مُعَوَّدا

فالشعراء المادحون معجبون بالحجاج وانتصاراته العظيمة التي يرى المادحون أنه لولا الحجاج لما تمت هذه الانتصارات. فله وحده يعود الشكر، وإليه فقط تساق القصائد حافلة بالإعجاب والتقدير.

ولم يكتف الشعراء كذلك بذم أعداء الحجاج بوجه عام وإن ألحقوا بهم كل صفة قبيحة، بل ذكروا أسماء بعض قادة الأعداء وألحقوا بهم ما شاءوا من النقائص وقد يكون على رأس القائمة ابن الأشعث نفسه، وابن الأشعث ليس بالشخص الغفل، فجدته أم أبيه أخت أبي بكر الصديق رضي الله عنه.[3] وله ولعائلته مكانة كبيرة في العراق بل عند الحجاج بن يوسف نفسه؛ إذ قاد ابن الأشعث الجيوش للحجاج ومع أنه سبق له الفرار مراراً[4] إلا أن الحجاج آمنة وكتب له عهدا على سجستان[5] وأمده بأفضل

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٩١/١.

(٢) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٠٣.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢٦٥/٣.

(٤) انظر: ابن حبيب: المحبر ص ٢٤٥. والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢٣٨/٧.

(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢٤٢/٧.

جيش حين أرسله لحرب الترك حتى سمي ذلك الجيش جيش الطواويس لفخامته واكتمال عتاده[1]. ولشرف أسرته زوج الحجاج ابنه محمدا (ت ٩١هـ) بأخت ابن الأشعث[2]. ومع ذلك وقف له الشعراء بالمرصاد وأولهم الفرزدق، فالفرزدق لشدة نقمته على أعداء الحجاج يخرج ابن الأشعث من حظيرة الإسلام إذ قال[3]:

وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ نَافَقُوا كَانَ مِنْهُمُ يَهُودِيُّهُمْ كَانُوا بِذَلِكَ أَعْذَرَا

فهو يهودي وجماعته وجنده منافقون، وفي قتله شفاء للمؤمنين[4]:

يُبَادِرُكَ الخيلَ التي مِنْ أَمَامِهِ لِيَشْفِيَ منكَ المؤمنين وَيَثْأَرا
مَحَارِمَ لِلإسلامِ كُنْتَ انْتَهَكْتَهَا وَمَعْصِيَةً كَانَتْ مِنَ القَتْلِ أَكْبَرا

فما فعله من الخروج عن الطاعة هو معصية أعظم من القتل في نظر الشاعر يريد بذلك أن الحجاج محق في حربه. وبالإضافة لمعصيته الكبرى في الخروج على الجماعة هو يرتكب كبائر أخرى[5]:

خَلِيْعٌ إِذَا مَا ـــ لمْ يَقُمْ لَهُ جَرَى الخَمْرُ فِي أَعْفَاجِهِ ثُمَّ قَرْقَرَا

فهو خليع شارب للخمر. ولم يكتف الشاعر بإخراجه من حظيرة الإسلام إذ أخرجه من أصله العربي الذي ينتمي إليه، فجعله مولى إذ لقبه بسيبخت وابن سيبخت فقال[6]:

وَلَمَّا رَأَى اللهُ الذي قَدْ صَنَعْتُمُ وَأَنَّ ابنَ سَيْبُخْتَ اعْتَدَى وَتَجَبَّرا
وَقَارَعْتُمُ في الحَقِّ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ بِبَاطِلِ سَيْبُخْتَ الضَّلَالِ وَذَكَّرا

ثم أخرجه من علية القوم إذ جعله عاملاً حرفيا، واختار له الحياكة لأن قبائل اليمن

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٥.

(٢) انظر: ابن قتيبة: أبا محمد عبد الله بن مسلم: الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفاء (القاهرة، مصطفي البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٨٨هـ. ١٩٦٩م) ٢/٣٦.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٠١.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٠٠.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٠٢.

(٦) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٩٥.

كانت توصم بهذا الأمر، فقال يعير جيشه بسوء اختيارهم قائدهم[1]:

يَسوقونَ حَوَّاكاً لِيَستَفتِحُوا بِهِ على أَولِيَاءِ اللهِ فِيمَنْ تَخَيرَّا

فهم يأملون النصر بهذا الحواك على من اختاره الله من أوليائه، وكأنما الشاعر يقول: "بعد ذلك عليهم"، ثم عاد مرة أخرى ليعيره بالحياكة ويفصل فيها فقال[2]:

وَلَكنَّمـــا اقْتَـــادُوا بِحَـــوَّاكِ قَرْيَـــةٍ لئـــيمٍ كَهَـــامٍ أَنفُـــهُ قـــد تَقَـــشَّرا

مُحَرَّقَـــةٌ لِلْغَـــزْلِ أَظْفَـــارُ كَفِّـــهِ لِتَدْقِيقِـــهِ ذا الطُّـــرَّتينِ المُحَبَّـــرا

فقد تحرقت أظفاره من الحياكة لا من مقارعة الأبطال واستخدام عدة القتال. فالفرزدق يسم ابن الأشعث بأقبح الصفات، ويفصل في ذلك، فكأنما هو بذلك يشفي غليل الحجاج من عدو تربص به حتى كاد ينحيه عن إمارته.

وكذلك هجا ابن الاشعث رجل من أقرب المقربين إليه . وهو أعشى همدان فقال ضاجاً من ابن الأشعث[3]:

لَقَـــدْ شَـــأمَ المِـــصْرَينِ فَـــرْخُ محمَّـــد بحـــقٍّ ومَـــا لاقَـــي مِـــنَ الطَّيْـــرِ أَسْـــعَدَا

كَمَـــا شَـــأمَ اللهُ النُّجَيْـــرَ وَأَهلَـــه بِجَـــدٍّ لَـــهُ قَـــدْ كَـــانَ أَشْـــقَى وَأَنْكَـــدَا

المصران يقصد بهما الكوفة والبصرة، ومصدر شؤمهما الآن ليس الحجاج وإنما ابن الأشعث الذي ثار بهما، ولم يقل ابن محمد بل عمد إلي تحقيره ليرضي الحجاج فجعله "فرخ محمد"، ثم نبه إلى أنه وعائلته كلهم مشؤومون من أيام حادثة النجير[4] التي كان بطلها جده الأشعث بن قيس.

وقد سخر الشعراء أيضاً من رؤوس أصحاب ابن الأشعث ممن قتل في تلك المعارك فقال الفرزدق[5]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٦/١.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٣٠٢/١.

(٣) ديوان أعشى همدان وأخباره، ص١٠٤.

(٤) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢٧٤/٣. ٢٧٥.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٧/١.

سَـقَي قَائـدَيها الـسمَّ حَتَّـى تَخَـاذَلوا ... عَلَيْهَـا وَأَرْوَى الزَّاعِبِـيَّ المؤمَّـرَا
سَـقَى ابـنَ رِزَامٍ طَعْنَـةً فَـوَّزَتْ بِـهِ ... وَمَحْروشَـهُمْ مَأمُومَـةً فَتَقَطَّـرا

فابن رزام يقصد به الشاعر هنا عبد الله بن رزام (ت ٨٢هـ) كان على مجنبة ابن الأشعث في دير الجماجم ومحروشهم يريد ابن حريش بن هلال (ت ٨٢هـ)[١]. وإمعانا في السخرية لم يكتف بالإخبار عن موتهما بل وصف طريقة موتهما فالأول مات مطعوناً والثاني مشجوجاً.

وقد سخر الشعراء أيضا من رؤوس أصحاب ابن الأشعث الذين فروا من ميدان المعركة، فالفرزدق في رائيته التي مدح فيها الحجاج لانتصاره على ابن الأشعث عدَّد تسعة ممن فر من رؤوس أصحاب ابن الأشعث وألحق بكل واحد منهم ما يستحقه من صفات، منهم على سبيل المثال[٢]:

وَأَفْلَـتَ رَوَّاضُ البِغَـالِ وَلَـمْ تَـدَعْ ... لَـه الخيـلُ مـن أَحْـرَاجِ زَوْجَيـهِ مَعْـشَرَا
وَأَفْلَـتَ دَجَّـالُ النِّفَـاقِ وَمَـا نَجَـا ... عَطِيَّـةُ إلا أَنَّـهُ كَـانَ أَمْهَـرَا
منَ الضِّفْدَعِ الجارِي على كُلِّ لِجَّةٍ ... خَفِيفـاً إذا لاقَـي الأواذِيَّ أَبْتَـرا[٣]

فهو يذكر جماعة من قواد ابن الأشعث ممن هرب من المعركة من أمثال عبد الرحمن بن عباس بن ربيعه وهو من لُقب في الشعر بـ "رواض البغال". وعبد الرحمن بن سمرة وهو من أشار إليه الشاعر بـ "دجال النفاق". وعطية بن عمرو العنبري الذي نعته الشاعر بأنه أمهر من الضفدع في السباحة سخريه منه واحتقارا لشأنه[٤]، فالأول كان على خيل ابن الأشعث والأخير كان على مقدمته[٥].ومن الواضح أن الحجاج قد نقم على جيش ابن الأشعث ولم يكتف فيهم بالحرب الفعلية بل سلط عليهم الحرب النفسية

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٢. ١٣. ١٧.
(٢) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٢٩٧.
(٣) الأواذي : جمع آذي وهو موج البحر.
(٤) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/ ٢٩٧.
(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٧.

حيث طلب من الفرزدق المعروف بحدة لسانه هجاء عبد الرحمن بن عباس فأفحش عليه[1]، وطلب من حميد الأرقط أن يكرر أبياته في ابن سمرة يتلذذ بذلك[2] كأنما لم يكتف بهجاء شاعر واحد فيه فقط. وسار مع رغبة الحجاج تلك في هجاء عبد الرحمن بن عباس والانتقاص منه شاعر من أصحاب ابن الأشعث وهو أعشى همدان[3].

في خضم المعارك القوية التي خاضها الحجاج مع ابن الأشعث لم يغب عن الشعراء وصف مسيرة المعركة، وهو الامتحان الحقيقي لقوة الجيش وحسن تخطيط القادة وشجاعة الفرسان، وللتمثيل على وصف المعارك يضرب المثال بقصيدتين أولاهما لشاعر لم يخض المعركة، وهو من أنصار الحجاج وهو العجاج إذ قال[4]:

فَمَا قَضَى أَمْراً ولا أَحَارَا ... في الحربِ إلا ربُّهُ اسْتَخَارَا
مَازالَ يَدْنُو منهمُ أَشْبَارَا ... حتَّى رَأوا لِلَونِهِ أَنْمَارَا
وَلاعْتِزَامِ رَأيِهِ أَزْرَارَا ... لا مُضْمَحِلاتٍ وَلا قِصَارَا
حَتَّى إِذَا صَفُّوا لَهُ جِدَارَا ... وكانَ مَا بَيْنَهُمْ طَوَارَا
حيث تُوَدِّي القُرْعَةُ القِمَارَا ... وَأَبْصَروا من رُعْبِهِ إِبْطَارَا
صَوَاعِقاً يَدْمَغْنَ وَانْتِهَارَا ... مِنْ ذِي حِفَاظٍ يَمْنَعُ الذِّمَارَا

أَوْرَدَ حُذّاً تَسْبِقُ الأَبْصَارَا

فالحجاج في البداية يستخير الله، ثم يلبس هو وجنوده جلود النمور كي يخفوا عن الأبصار أو يموهوا عليها، ثم يسير بجرأة إلي جيش العدو حتى يروا نقط جلد النمر التي يلبسونها لقربهم منهم، ويشعرون بأنه عازم على مقاتلتهم عزماً ثابتاً، ثم يصف أمام جيش ابن الأشعث بكل جرأة مقابلا له تماماً كالطوار، ثم يقترعون على من غلب فله النصر، حينذاك ظهر من غضب الحجاج ما أرعبهم وأذهب عقولهم، وبدأت المعركة بإرسال السهام العطاش.

---

(١) انظر: الجاحظ: كتاب البغال (ضمن رسائل الجاحظ) ٢/٢١٦.
(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/١٧.
(٣) انظر: ديوان أعشى همدان وأخباره ص١٠٣.
(٤) ديوان العجاج ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

والشاعر الثاني أعشى همدان وصف المعركة وقد حضرها فعلاً وكان أحد العوامل الفعالة فيها، وكانت عواطفه مع ابن الأشعث إلا أن يأسه من النصر دفعه لمدح الحجاج، فقال واصفاً سير المعركة التي سبق أن خاضها وهو في صفوف ابن الأشعث[1]:

١-وَلَمَّـــا زَحَفْنَـــا لابـــنِ يُوْسُـــفَ غَـــدْوَةً ... وَأَبْـــرَقَ مِنَّـــا العَارِضَـــانِ وَأَرْعَـــدَا

٢-قَطَعْنَـــا إِلَيْـــهِ الخَنْـــدَقَيْنِ وَإِنَّمَـــا ... قَطَعْنَـــا وَأَفْـــضَيْنَا إِلَـــى المـــوتِ مُرْصِـــدا

٣-فَكَافَحْنَـــا الحجـــاجُ دونَ صُـــفُوفِنا ... كِفَاحـــاً وَلَـــمْ يَـــضْرِبْ لِـــذَلِكَ مَوْعِـــدَا

٤- بِـــصَفٍّ كَـــأَنَّ البَـــرْقَ فِـــي حَجَرَاتِـــهِ ... إِذَا مَـــا تَجَلَّـــى بَيْـــضُهُ وَتَوَقَّـــدا

٥- دَلَفْنَـــا إِلَيْـــهِ فِـــي صُـــفوفٍ كَأَنَّهَـــا ... جِبَـــالُ شَـــرَورَى لَـــوْ تُعَـــانُ فَتَنْهَـــدَا

٦- فَمَـــا لَبِـــثَ الحجـــاجُ أَنْ سَـــلَّ سَـــيْفَهُ ... عَلَيْنَـــا فَـــوَلَّى جَمْعُنَـــا وَتَبَـــدَّدَا

٧-وَإِنَّ ابـــنَ عَبْـــاسٍ لَفِـــي مُرْجَحِنَّـــةٍ ... نُـــشَبِّهُهَا قِطْعـــاً مِـــنَ الليـــلِ أَسْـــوَدا

٨- فَمَـــا شَـــرَعُوا رُمْحـــاً وَلَا جَرَّدُوايَـــدا ... أَلا رُبَّمَـــا لاقَـــى الجَبَـــانُ فَجَـــرَّدَا

٩-وَكَـــرَّتْ عَلَيْنَـــا خَيْـــلَ سُـــفْيَانَ كَـــرَّةً ... بِفُرْسَـــانِهَا وَالـــسَّمْهَرِيِّ مُقَـــصَّدَا

فهو يركز على ضخامة جيش ابن الأشعث الذي يعرفه جيداً لأنه أحد جنود ذلك الجيش، وهو يشبهه في ضخامته مرة بالسحاب الكثيف، ومرة بجبال شرورى، ويبين مدى غضبهم من الحجاج وحرصهم وإقدامهم على قتاله قبل أن يلقوه ولكن بمجرد أن لقوه ومعه صفوفه المتراصة المكتملة العدة تبدد جمعهم، وخارت قواهم، ولم ينفعهم قوادهم من أمثال "ابن عباس" بينما كان في فرسان الحجاج من أمثال "سفيان" الغناء كل الغناء، وجميل هنا إتيانه بـ "ابن عباس"، و "سفيان" متقابلين إذ الأول على خيل ابن الأشعث والثاني على خيل الحجاج، وجميل أيضا البيتان الرابع والخامس حيث في البيت الخامس بيَّن ضخامة جيش ابن الأشعث مما يوحي بالمدح، ثم عاد ليقلب هذا المدح إلى هجاء شديد حين صور هذه الجموع تفر هاربة بمجرد أن سل الحجاج سيفه، وهذه مبالغة تدل على حرص الشاعر على مدح الحجاج وإظهار قوته.

أما ما يفعله بأعدائه من جنود ابن الأشعث داخل ميدان المعركة فقد صوره "العجاج"

---

(١) ديوان أعشى همدان وأخباره ١٠٢-١٠٣.

برجزه القوي[1]:

غَـــدَاةَ يَـــسْقِيهمْ صَـــبُوحاً مِـــضَّا ... بِالمَـــشْرَفِيَّاتِ وَطَعْنـــاً وَخْـــضَا[2]

يَمْـضِي إِلـى عَاصـي العُـرُوقِ النَّحْـضا ... حَتَّـــى اشْـــفَتَرُّوا خَـــرَزاً مُرْفَـــضَّا[3]

مُلَحَّبـــاً أو سَـــابِقِينَ جَرْضَـــا ... يَجْـــزِيهُمُ بِكُـــلِّ قَـــرْضٍ قَرْضَـــا[4]

وَتَـــارةً يُـــسَلَّفُون فَـــرْضَا ... حَتَّـــى تَقَـــضَّى القَـــدَرُ المُقَـــضَّى

ضَـــرْباً هَـــذَاذَيْكَ وَطَعْنـــاً وَخْـــضَا ... صَقْعـــاً إِذَا صَـــابَ الـــرُّؤُوسَ رَضَّـــا[5]

أَعْلَى الطِّـرَاقَينِ وَطَعْنـا مِضَّا

فالحجـاج فـي نظـر الـشاعر قـوي الحيلـة قـادر علـى الانتقـام مـن خـصمه فـي خـضم المعركة وكلا الفريقين معه كامل عدته وسلاحه، فالحجاج يتصرف في خصمه، ظاهر عليه، يطعن فيه كيفما يشاء طعنات واسعة غير نافذة وطعنات نافذة إلي العروق ويهذّ فيهم هذّا مع رجم الرؤوس وحرارة جراحات السيوف، وللمبالغة في السخرية من ابن الأشعث سوغ الشاعر هذا الضرب في جيش ابن الأشعث، إذ هو قضاء لدين سابق وهو سوء أعمال ابن الأشعث وجيشه، والحجاج لكرمه وقوته زاد على القرض بعد تسديده هبة من الضربات.

والمبالغة في السخرية من جنود ابن الأشعث عرج الشعراء للحديث عن أسباب خروجهم على الحجاج، وجاءوا بهذه الأسباب بأساليب تبعث على السخرية من أعداء الحجاج،فالحقد قد يكون هو السبب كما قال العجاج[6]:

وَقَدْ عَلِمْنَا مَعْشَراً أَغْمَارَا ... فَقَأَ أَكْبَادَهُمُ المرَارَا

أما جرير فجاء بسبب يعد مدحاً للحجاج إذ قال[7]:

وَقَالُوا لَنْ يُجَامِعُنَا أَمِيرٌ ... أَقَامَ الحدَّ واتَّبَعَ الكِتَابَا

---

(١) ديوان العجاج ص١٣١. ١٣٢.

(٢) المض: الحاد. وخض: يجوف ولا ينفذ.

(٣) عاصي العروق: أي الذي لا يرقأ: النحض: اللحم. اشفتروا: تفرقوا. مرفضا: متفرق.

(٤) ملحب: مضروب بالسيف. الجرض: ابتلاع الريق من الكرب.

(٥) هذاديك: قطعاً بعد قطع.

(٦) ديوان العجاج ص ٣٦٦.

(٧) ديوان جرير ١/ ٢٤٤.

فلا عيب في الحجاج عند أعدائه إلا تقواه، أما أعشى همدان فقال[1]:

نَزَوا يَشْتكونَ البَغْيَ مِنْ أُمَرَائهِمْ وَكَانُوا هُمُ أَبْغَى البُغَاةِ وَأَعْنَدا

فهم يرمون أمراءهم بعلتهم - وهي "البغي" - والأمراء منها براء، والطريف هنا وصف أعشى همدان لجند ابن الأشعث بالبغي والعناد وهو معدود واحداً منهم.

إن أشهر شعراء العصر الأموي تحدثوا عن حرب الحجاج مع ابن الأشعث وأطالوا الحديث عنها، ولم لا وهي أيام كثيرة متوالية، كان للحجاج مع ابن الأشعث في أحدها وهو "دير الجماجم" ثمانون وقيعة كلها لابن الأشعث إلا آخرها كانت للحجاج[2]، وقس على ذلك بقية الأيام وعظمتها. بل بلغت قوة ابن الأشعث أن وصل الكوفة واستولى على بيت المال[3]، لذلك كانت هذه الحرب أخطر أيام الحجاج وأشدها وقعاً في نفسه، بل لقد أهمت هذه الحرب عبد الملك بن مروان نفسه وهو في دمشق فجفاه النوم[4]،كما إنه عرض على الثوار خلع الحجاج عن ولايته على العراق مقابل إنهاء الحرب[5] مما ضاعف من هم الحجاج وأثار حنقه على هؤلاء الثوار، لذلك استحق وقفة طويلة من الشعراء وتهنئة عظيمة لانتصاره وشماتة واسعة بأعدائه.

تصدي الحجاج للخوارج:

ومن الأيام التي ذكرها الشعراء أيام الحجاج مع الخوارج الذين أثقلوا كاهل الدولة الأموية طويلاً، وشغلوها عن الفتوح والإصلاحات الداخلية. وكان خروجهم في نطاق سلطان الحجاج بن يوسف مما جعله المسؤول عن حربهم أمام الخلافة الأموية التي حرص الحجاج على كسب رضاها.

لقد شمر الحجاج لحرب الخوارج منذ أول يوم تولى فيه إمارة العراقين،إذ أخذ على عاتقه إعادة الجنود الفارين من جيش المهلب، وقد عانى هؤلاء الجنود الأمرين من قتال الخوارج، لذا علم الحجاج أنهم لن يعودوا إلى مواقعهم بالحسنى، فمضى يتهدد ويتوعد

---

(١) ديوان أعشى همدان وأخباره ص١٠٣.

(٢) انظر: خليفة بن خياط. تاريخ خليفة بن خياط ٢/ ٢٨٠.

(٣) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٩٩.

(٤) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٩٤.

(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٥.

بل قدم دليلاً عملياً بين يدي توعده بقتله في الكوفة عمير بن ضابيء (ت ٧٥هـ) لتخلفه عن الخروج، ثم قتله في البصرة رجلاً من بني يشكر وكلاهما كان له عذر في عدم الخروج[١] مما جعل الناس يتزاحمون في الخروج لحرب الخوارج. وقد وصف عبد الله بن الزَبير الأسدي (ت نحو ٧٥هـ) حالة الرعب التي أصابت الناس وجعلتهم يسابقون للخروج ويمتثلون للطاعة[٢]:

أَقُولُ لإِبْرَاهِيمَ لَمَّا لَقِيْتُهُ ... أَرَى الأَمْرَ أَمْسَى مُنْصِباً مُتَشَعِّبَا
تَجَهَّزْ وَأَسْرِعْ وَالحَقَ الجَيشَ لا أَرَى ... سِوَى الجَيشِ إلا فِي المَهَالِكِ مَذْهَبَا
فَمَا إِنْ أَرَى الحجاجَ يُغْمِدُ سَيفَهُ ... يَدَ الدَّهْرِ حتى يَتْرُكَ الطِّفْلَ أَشْيَبَا

فهو يصور سياسة الحجاج الحازمة في التعامل مع المتخاذلين، وموقف الناس منه، فقد أثمرت تلك السياسة طاعة تامة للحجاج، بل يأمر بعضهم بعضاً بالإسراع للخروج. وطريف قول الشاعر في البيت الثاني حيث جعل الجيش الذي هو عادة مصدرٌ للهلاك جعله مصدراً للنجاة من الحجاج.

وقد مُدح الحجاج بالقضاء على رؤوس الخوارج في وقته، وأولهم شبيب بن يزيد (ت ٧٧هـ) الذي خرج على الحجاج في أصل إمارته في العراق، ووجه له الحجاج الجيش تلو الجيش، فهزمهم شبيب حتى أن الحجاج خرج بنفسه لقتاله[٣]. بل وصلت خطورة شبيب إلى اقتحامه الكوفة ليلا وحصاره قصر الحجاج، والحجاج بداخلة[٤]،مما جعل الأخطل (ت ٩٠هـ) في مدحته اليتيمة للحجاج يمدحه بقضائه على شبيب"[٥]:

طَلَبَ الأَزَارِقَ بِالكَتَائِبِ إِذْ هَوَتْ ... بِشَبِيْبَ غَائِلَةُ النُّفُوسِ غَدُورُ
يَرجُو البَقِيَّةَ بَعْدَ مَا حَدَقَتْ بِهِ ... فُرْطُ المنِيَّةِ يَحْصُبٌ وحَجُورُ[٦]
فَأَبَادَ جَمْعَهُمُ حَمِيداً وَانْثَنَى ... وَلَهُ لِوَقْعَةِ آخَرِينَ زَئِيرُ

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٢١٤.
(٢) شعر عبد الله بن الزبير ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٢٥١.
(٤) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٧٤.
(٥) شعر الأخطل ص٤٠٨ ـ ٤٠٩.
(٦) يحصب وحجور: من قبائل اليمن.

ولطيف هنا قوله "حميداً"، فهو قد أباد جموعهم محموداً في تلك الإبادة لا متجنباً فيها ولا حاقدا.

وكذلك مُدح الحجاج بالقضاء على الأزارقة وقائدهم قطري بن الفجاءة (ت ٧٨هـ) فقال العديل بن الفرخ (ت نحو ١٠٠هـ)[١]:

وَصُلْتَ بِمُرَّاقِ العِرَاقِ فَأَصْبَحَتْ ... مَنَاكِبُهَا لِلْوطءِ وَهْيَ ذَلُولُ

أَذَقْتَ الحِمَامَ ابْنَيْ عُبَادٍ فَأَصْبَحُوا ... بِمَنْزِلِ مَوْهُونِ الجَنَاحِ تَكُولُ

وَمِنْ قَطَرِيٍّ نِلْتَ ذَاكَ وَحَوْلَهُ ... كَتَائِبُ مِن رَجَّالَةٍ وَخُيُولُ

فهو قد قضى على الخوارج "مراق العراق"، وقتل منهم رؤوسهم أمثال: ابني عباد وزعيمهم "قطري" ولم تنفعه الكتائب من حوله أمام قوة جيوش الحجاج.

والباحث يتوقع أن يجد شعراً أكثر حول حرب الحجاج مع الخوارج وخاصة شبيباً وصحبه، ولكن الشعراء لم يتحدثوا عن حربه مع الخوارج مثلما تحدثوا عن حربه مع ابن الأشعث، ربما لأن حربه مع ابن الأشعث كانت حرباً مصيرية هددت في إحدى مراحلها بالإطاحة بالحجاج والخلافة الأموية من ورائه، أما حروب الخوارج فهي - وإن ضايقت الأمويين - لم تصل إلى هذا الحد. ومن ناحية أخرى كان تمرد ابن الأشعث تمرداً شعبياً شارك فيه جماهير غفيرة من العراقيين، في حين ظل الخوارج محصورين في طوائف محدودة يمقت الناس مذهبهم بينما شارك في ثورة ابن الأشعث الصالحون من القراء والفقهاء.

القضاء على ابن الزبير:

ومن الأيام الخطيرة التي خاضها الحجاج بن يوسف حصاره مكة والقضاء على عبد الله ابن الزبير (ت ٧٣هـ). وهذه الحرب يحوطها ما يحوطها من خرق لقداسة مكة المكرمة، وحرب في الحرم الشريف وقتل لابن حواري رسول الله ابن ذات النطاقين ومع ذلك ففي نظر مادحي الحجاج من الشعراء أن الحجاج مصيب في حربه لابن الزبير، فالفرزدق يعد تلك الحرب جهاداً[٢]:

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٢٢/٣٦٣.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٥.

لا يَغْمِدُ السَّيفَ إلا مَا يُجَرِّدُهُ ... عَلَى قَفَا مُحْرِمٍ فِي السُّوقِ مَصْلُوبِ
مُجَاهِدٍ لِعُدَاةِ اللهِ مُحْتَسِبٍ ... جِهَادَهُمْ بِضِرابٍ غَيْرَ تَذْبِيبِ

وهو يحاول أن يجد العذر الشرعي لتلك الحرب حين قال[1]:

فَالأَرْضُ للهِ وَلاهَا خَلِيفَتَهُ ... وَصَاحِبُ اللهِ فِيهَا غَيْرُ مَغْلُوبِ
بَعْدَ الفَسَادِ الذي قَدْ كَانَ قَامَ بِهِ ... كَذَّابُ مكَّةَ مِنْ مَكْرٍ وَتَخْرِيبِ
رَامُوا الخِلافَةَ عَنْ غَدْرٍ فَأَخْطَأَهُمْ ... مِنْهَا صُدُورٌ وَفَازُوا بالعَرَاقِيبِ

فالله قدر الخلافة لعبد الملك فلم يعارض ابن الزبير؟ ونعت ابن الزبير بكذاب مكة فادعاءاته بأحقية الخلافة كلها كاذبة؛ ولذلك فازوا بالعراقيب فحسب.

ومدح عبد الله بن الزبير الأسدي الحجاج لقضائه على ابن الزبير فقال[2]:

كَأنيَّ بِعَبْدِ اللهِ يَركبُ رَدْعَهُ ... وَفِيهِ سِنانٌ زَاعِبِيٌّ مُحَرَّبُ[3]
وَقَدْ فَرَّ عَنْهُ المُلْحِدُونَ وَحَلَّقَتْ ... بِهِ وَبِمَنْ آسَاهُ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ
تَوَلَّوا فَخَلَّوه فَشَالَ بِشِلْوِهِ ... طَوِيلٌ مِنَ الأَجْذَاعِ عَارٍ مُشَذَّبُ
بِكَفَّيْ غُلامٍ مِنْ ثَقِيفٍ نَمَتْ بِهِ ... قُرَيْشٌ وَذُو الْمَجْدِ التِّلِيدِ مُعَتَّبُ

فجعل أصحابه ملحدين لحقت بهم المصائب أما ابن الزبير فكانت نهايته الصلب بيد غلام من ثقيف علت به قريش، يقصد الحجاج.

حروب أخرى:

ومن أيام الحجاج التي ذكرت في الشعر "يوم عمان"[4] وحربه مع داهر ملك الديبل[5] ووراءهما أيام كثيرة خاضها الحجاج وخرج منها منتصراً لم ترد في الشعر، أو وردت دون

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٥.
(٢) شعر عبد الله بن الزبير ص٥٢.
(٣) يركب ردعه: أي قتل. محرب: محدد.
(٤) انظر: ديوان جرير ١/٤٠٤-٤٠٥.
(٥) انظر: ديوان جرير ١/٤٠٧-٤٠٨.

أن يُنَص لها على اسم. فهناك وصف لمعارك خاضها الحجاج دون أن تحمل أي إشارة تدل على اسم المعركة أو تاريخها أو من هو الخصم فيها مثل قول الفرزدق[1]:

وَيَـــومٍ تَـــرَى جَـــوْزَاؤهُ مِـــنْ ظَلَامِـــهِ ... تَـــرَى طَيْـــرَهُ قَبْـــلَ الوَقِيعَـــةِ وُقَّعَـــا
لِيَنْظُـــرْنَ مَـــا تَقْـــضِي الأَسِـــنَّةُ بَيْـــنَهُمْ ... وَكُـــلُّ حُـــسامٍ غِمْـــدُهُ قَـــدْ تَسَعْـــسَعَا[2]
جَعَلْـــتَ لِعَافِيْهَـــا بِكُـــلِّ كَرِيْهَـــةٍ ... جُمُوعـــاً إِلـــى القَتْلَـــى مَعَافـــاً وَمَـــشْبَعَا[3]
بِهِنْدِيَّـــةٍ بِـــيضٍ إِذَا مَـــا تَنَاوَلَـــتْ ... مَكَـــانَ الـــصَّدَى مِـــنْ رَأْسِ عَـــاصٍ تَجَعْجَعَـــا[4]
وَقَـــدْ كُنْـــتَ ضَـــرَّاباً بِهَـــا يَـــا ابْـــنَ يُوسُـــفٍ ... جَمَـــاجِمَ مَـــنْ عَـــادَى الإِمَـــامَ وَشَـــيَّعَا
جَمَـــاجِمَ قَـــومٍ نَـــاكِثِينَ جَـــرَى بِهِـــمْ ... إِلَـــى الغَـــيِّ إِبْلِـــيسُ النِّفَـــاقِ وَأَوْضَـــعَا

وهذه المعركة وإن لم نستدل على اسمها تتمشى مع أسلوب الحجاج الذي يحرص على النصر دائماً ويحارب أعداء الدولة الأموية بإخلاص منقطع النظير، فعدو الخليفة الأموي هو عدوه دون داع لذكر أسماء.

سلاح الحجاج وعتاده:

الحجاج خاض كثيراً من الحروب، اختلفت في مسمياتها وأماكنها وأزمانها وأسبابها والخصوم فيها، واتفقت جميعها في أمور أخرى، ففي كل تلك الأيام كان الحجاج كقائد عسكري ناجح يعتني بالعتاد والسلاح ويستعد للمعركة قبل أن تبدأ، كما قالت ليلى الأخيلية[5]:

إِذا سَـــمِعَ الحجـــاجُ رِزَّ كَتِيْبَـــةٍ ... أَعَـــدَّ لَهَـــا قَبْـــلَ النُّـــزولِ قِرَاهَـــا
أَعَـــدَّ لَهَـــا مَـــصْقُولَةً فَارِســـيةً ... بِأَيْـــدِي رِجَـــالٍ يَحْلِبُـــونَ صَـــرَاهَا

والحجاج أعجب كثيراً بهذا الشعر وبين لأصحابه أنه يدل على صفته فعلاً فقال: "والله

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٩٧.
(٢) تسعسع: أخلق.
(٣) معاف: أي تشبع منه فتعافه.
(٤) تجعجع: أي أثخنه الضرب.
(٥) ديوان ليلى الأخيلية ص ١٢١.

ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها"، ثم قال: "والله إني لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبدا"[1]، فهو يستعد للأمر ويحسب له ألف حساب حتى لو كان بعيد الوقوع والاحتمال. وأهم ما يستعد به العربي للحرب هو السيف، وقد جعلته ليلى الأخيلية في تصويرها اللطيف ك "القرى" الذي يقدم للأضياف، وزادت معنى جميلاً على البيت، فالعدة الحربية لا تكتمل فائدتها بل لا تعطي نتائجها إلا إذا أحسن استخدامها،وسيوف الحجاج هي من أجود السيوف يستخدمها أفضل الرجال.

وتحدث الشعراء كثيراً عن سيف الحجاج الذي يشهره في وجوه معارضية فينشر الرعب في قلوبهم قال جرير[2]:

لَقَدْ جَرَّدَ الحجاجُ بِالحَقِّ سَيفَهُ لَكُمْ فَاسْتَقِيموا لا يَمِيلَنَّ مَائلُ

وكقوله عبد الله بن الزبير الأسدي[3]:

فَمَا إِنْ أَرَى الحجاجَ يغْمِدُ سَيفَهُ يَدَ الدَّهرِ حتى يَتْرُكَ الطِّفْلَ أَشْيَبَا

وقول أعشى همدان[4]:

فَمَا لَبِثَ الحجاجُ أَنْ سَلَّ سَيفَهُ عَلَيْنَا فَوَلَّى جَمْعُنَا وَتَبَدَّدا

وغيرها كثير. وقد يكون مصدر ذلك هو الحجاج نفسه الذي تحدث كثيراً عن سيفه كقوله في أول خطبة خطبها في الكوفة أول دخوله العراق: "ألا إني سريت البارحة فسقط مني سوطي، فاتخذت هذا. وأشار إليهم بسيفه. مكانه. والله لأجرنه فيكم جر المرأة ذيلها". وما نزل من منبره إلا والقلوب يملؤها الرعب من هول الخطبة حتى سأل وجوه أهل البصرة: "ما كانت الولاة تفعل بالعصاة، فقالوا: كانت تضرب وتحبس: فقال الحجاج: ولكن ليس لهم عندي إلا السيف، ثم قال لصاحب حرسه وصاحب شرطه: إذا مضت ثلاثة أيام فاتخذا سيوفكما عصيا"[5]، وحتى قال الشعبي (ت ١٠٣هـ): "إن درَّه عمر

---

(١) انظر: أبا علي القالي: الأمالي ٨٧/١.

(٢) ديوان جرير ٤٠٣/١.

(٣) شعر عبد الله بن الزبير ص ٥٥.

(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٠٢.

(٥) انظر: البسوى، أبا يوسف يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م) ٤٨١/٢.

أهيب من سيف الحجاج"[1]،فمجرد جعل الموازنة بسيف الحجاج دون سواه دليل على شهرة سيف الحجاج وإرعابه.

ومما لفت أنظار الشعراء من عتاد الحجاج الحربي "الخيل" فنظموا في وصفه الأبيات، قال الأخطل في وصف خيل الحجاج[2]:

وَالخَيـــلُ يُتعِبُهـــا علـــى عِلاتِّهَـــا ... للّهِ مُنْتَـــصِبُ الفُـــؤَادِ، شَـــكُورُ

خُوصاً، أَضَرَّ بِهَا ابنُ يُوسُفَ فَانْطَوتْ ... والحـــربُ لاقِحَـــةٌ لهـــنَّ زَجُـــورُ[3]

وَتَـــرَى المُـــذَكِّي فـــي القِيَـــادِ كَأَنَّـــهُ ... مِـنْ طُـولِ مَـا جَـشِمَ الغِـوارَ، عَقِيـرُ[4]

وَحَـولِنَ مِـنْ خَلْـجِ الأعِنَّـةِ فَـانْطَوتْ ... مِنْهَـا البُطُـونُ وَفـي الفُحُـولِ جُفُـورُ[5]

قَطَـعَ الغُـزاةُ عِجَـافَهُنَّ وَأَصْـبَحَتْ ... جُـــرْدٌ صَـــلادِمُ قُـــرَّحٌ وَذُكُـــورُ[6]

فهو دائم الحروب، ومطيته الخيل الأصيلة التي أتعبها الحجاج وأضر بها من كثرة ما خاض بها من المعارك، وكانت هذه المعارك هي الاختبار الحقيقي لخيل الحجاج، فما كان ضعيفاً منها نفق، وبقي القوي ينتظر يوماً جديداً.

وكذلك وصف جرير خيل الحجاج [7]، ووصف أيضاً السفن الحربية التي استخدمها الحجاج، فقال[8]:

سَـلَكْتَ لأهْـلِ البَـرِّ بَـرّاً فَنِلْـتَهُمْ ... وَفِي اليَمِّ يَأْتمُ السَّفِين الجوافلُ[9]

تَـرَى كُـلَّ مِـرْزابٍ يُـضَمَّنُ بَهْوُهَـا ... ثَمَـانينَ أَلْفـاً زَايَلَتْهَـا المَنَـازِلُ[10]

جَفُـولٍ تَـرَى المِـسْمَارَ فِيهَـا كَأَنَّـهُ ... إِذَا اهتزَّ جِذعٌ من سُمَيْحَةَ ذابلُ[11]

---

(١) المبرد: الكامل ٣/ ١١٢٠.

(٢) ديوان الأخطل: ص ٤٠٥. ٤٠٦.

(٣) الخوص: الغائرة الأعين من التعب. زجور: الناقة التي تعرف بعينيها وتنكر بأنفها.

(٤) المذكي: الجواد الكامل التام في سنه وقوته. الغوار: الغارة.

(٥) جفور: ذهاب النشاط.

(٦) قطع: أهلك. عجافهن: مهازيلهن. الجرد: الخيول خفيفة الشعر.

(٧) انظر: ديوان جرير ١/ ٤٠٤.

(٨) ديوان جرير ١/ ٤٠٥-٤٠٦.

(٩) الجوافل: المسرعة.

(١٠) المرزاب: السفينة الضخمة.

(١١) المسمار: الصاري. سميحة: بئر بالمدينة.

إذا اعتَـرَكَ الكَـلاَّءُ والمـاءُ لـم تُقِـدْ ... بِأَمْرَاسِهـا حتـى تَثُـوبَ القَنَابـلُ[1]

تخـالُ جبـالَ الـثَّلجِ لَمَّـا تَرَفَّعَـتْ ... أَجلَّتُهـا والكيـدُ مـنهنَّ كامـلُ[2]

تـشقُ حَبَـابَ المـاءِ عَـنْ وَاسِـقَاتِهِ ... وَتَفْرِسُ حُوتَ البَحْرِ مِنْهَا الكَلاكِلُ

فالحجاج يستخدم كل الوسائل المناسبة، فأهل البر يستخدم لهم الخيل، وفي البحر السفن الحربية، وليست أي سفن، فهي سفن واسعة جداً تتسع لثمانين ألف من المقاتلين، سريعة السير،لا يتمكن من السيطرة عليها عدد كبير من الرجال، يخال الرائي أشرعتها جبالاً من الثلج إلا أنها ملأى بالسلاح، وهي قوية تمشي قدماً تشق الماء والأمواج بل تقتل الحيتان التي تعترض طريقها دون أن تتوقف. وهذه الأوصاف المباشرة لأسطول الحجاج الحربي تدل على ما وراءه من كثرة عدد جنوده الذين يرسل من أجلهم كل هذا الأسطول، وثقل عتاده الحربي الذي تمتلئ به هذه السفن، وسرعة إيصالها للغوث والعون ممن يحتاج إليه من أنصار الحجاج مما يبعث الرعب في قلوب أعدائه، ويجعلهم يفكرون كثيراً قبل الخروج عليه أو على الخلافة الأموية.

ومن الآلات الحربية التي استخدمها الحجاج كثيراً "المنجنيق". وقد أسهب "العجاج" في وصف المنجنيق الذي استخدمه الحجاج في ضرب جيش ابن الأشعث وصفاً يدل على قوة هذا المنجنيق وأدائه لمهمته، ومما قاله[3]:

وَكُـلٌّ أُنْثَـى حَمَلَـتْ أَحْجَـارَا ... تُنـتَجُ حِـينَ تُلْقَـحُ انبِقَـارا

تَـرَى بِحَيـثُ وَقَعَـتْ غُبَـارا ... كَمَـا تَـرَى فـي الهُـوَّةِ الأُورَا[4]

إِذَا سَـمِعتَ صَـوتَها الخَـرَّارا ... يَهْـوِي أَصَـمَّ صَـقْعُها الـصَّرَّارا[5]

كَـأَنَّ فـي أَلْـوَانِهم صُـفارا ... وَأُمْهَـاتِ هَامِهِـم دُوَارا

إذ حَـرِجَ المـوتُ بهـم وَدَارا ... وَرَعَـد العَـارِضُ واسـتَطَارا[6]

---

(١) الكلاء: مجتمع السفينة. الأمراس: الحبال. القنابل: الجماعات.

(٢) أجلتها: أشرعتها. الكيد: السلاح.

(٣) ديوان العجاج ص ٣٧٠ ـ ٣٧٣.

(٤) الأوار: اللهب يخرج من الأرض.

(٥) الخرار: المُصوت. الصوار : نوع من الطيور.

(٦) حرج: لزق. استطارا: اتسع الشر.

في وصف طويل جداً، فالمنجنيق كالمرأة الحامل لابد أن تضع مولودها، والمنجنيق لابد أن يضع حجراً قوياً على الأعداء، والشاعر يعطي النتائج الإيجابية لاستخدام المنجنيق، فهو يثير الغبار على جيش العدو إذا وقع، ثم تشتعل به النيران فيما حوله وتصم آذان الأعداء بصوته القوى، ثم يعطي النتائج النفسية لاستخدامه، فهو يبث الرعب في قلوبهم فتصفر ألوانهم، وتدور رؤوسهم لما يعنيه من قرب الموت منهم، وهو - أي الموت - أكثر ما يخافون، وبالتالي لا يركزون على القتال والكر والفر وهو ما يريده الحجاج. فكأنما الشاعر أراد أن يقول إن الحجاج ذكي جداً في استخدامه للمنجنيق، فهو يعرف كيف يختار آلاته الحربية. وهذا الوصف المطول الدقيق لمنجنيق الحجاج يبعث على التساؤل عن عدم وصف مادحيه للمجانيق التي استخدمها الحجاج في ضرب الكعبة وهي أكثر وأشهر من هذا المنجنيق!! وقد يكون ذلك لما ينطوي عليه من دلالة ربما تُحمل ضد الحجاج؛ أي أن أعداءه يحملون ضربه الكعبة على استخفاف بمقامها، فتجنبوا الوقوع في هذا المأزق بعدم الإشارة إليه والضرب عنه صفحاً.

ووصف الشعراء السهام التي استخدمها الحجاج، قال العجاج[1]:

أَوْرَدَ حُـــذّاً تَـــسْبِقُ الأَبْـــصَارا يَـــسْبُقْنَ بـــالموتِ القَنَـــا الحِـــرَارَا
تُـــسْرِعُ دُونَ الجُـــنَنِ البِـــشَارا وَالمِـــشْرَفِيَّ وَالقَنَـــا الخَطَّـــارَا

فسهامه سريعة تسبق النظر وتسبق بالموت إلى الخصم قبل الرماح العطشى، وهي لسلاستها تصيب جسد الخصم حتى لو كان لابساً درعاً، فالدروع قد تقيه السيف والرمح لكن لا تقيه هذه السهام التي مع جند الحجاج، وهذه لفتة لطيفة في الشعر من وصف للسهم وتغلبه على الدرع.

فالحجاج في نظر مادحيه من الشعراء حريص على عدته الحربية يختارها من أفضل الأنواع سواء أوسائل النقل كالسفن والخيل أم السلاح كالمنجنيق والسهام.

والحجاج في حروبه تلك يوطد أركان دولة بني أمية ويخضع أعداءها ويؤمن أطرافها ويوسع رقعتها، وبعد هذا كله يجلب الغنائم الثمينة ويرسلها إلى الخليفة الأموي، قال

---

(١) ديوان العجاج ص ٣٧٠.

الأخطل[1]:

وَأَخُـو الـصَّفَاءِ فَمَـا تَـزالُ غَنِيمَـةٌ ... مِنْـهُ يَجِـيءُ بِهَـا إليْـكَ بَـشِيرُ
وَتَـرَى الرَّوَاسِـمَ يَخْـتَلِفْنَ وَفَوْقَهَـا ... وَرِقُ العِـرَاقِ سَـبَائكٌ وَحَرِيـرُ
وَبَنَـاتُ فَـارِسَ كُـلَّ يَـومٍ تُـصْطَفَى ... يَبْلُـونَهُنَّ وَمَـا لَهُنَّ مُهُـورُ

فهو يحمل الأموال والإماء إلى الخليفة.

ارتباط الحجاج بالله في حروبه:

وفي خضم المعارك وشدتها يصور الشعراء الحجاج شديد الارتباط بالله، فهو يستخير الله قبل كل معركة، وقبل كل خطوة عسكرية، قال العجاج[2]:

فَمَا قَضَى أَمْراً وَلا أَحَارَا ... في الحَرْبِ إلا رَبَّهُ اسْتَخَارَا

ويكثر من الدعاء، قال جرير[3]:

دَعَـا الحجـاجُ مِثْـلَ دُعَـاءِ نُـوحٍ ... فَأَسْـمَعَ ذَا المَعَـارِجِ فَاسْـتَجَابَا
صَـبَرتَ الـنَّفْسَ يَـا ابْـنَ أَبـي عَقِيـلٍ ... مُحَافَظَـةً فَكَيْـفَ تَـرَى الثَّوابَـا
وَلَـوْلَـمْ يَـرْضَ رَبُّـكَ لَـمْ يُنَـزِّلْ ... مَـعَ النَّـصْرِ المَلائكَـةَ الغِـضَابَا

فهو يدعو مثل دعاء نبي الله نوح واستجاب له الله، وأنزل له مع النصر ملائكة غضابا على أعداء الحجاج أكدوا هذا النصر، وتتكرر هذه الصورة من الدعاء والنصر والملائكة عند الفرزدق[4]:

دَعَـوا وَدَعَـا الحجـاجُ وَالخَيْـلُ بَيْنَهَـا ... مَدَى النَّبْلِ فِي سَامِي العَجَاجَةِ أَكْدَرَا
إِلَـى بَاعِـثِ المَـوتَى لِيُنْـزِلَ نَـصْرَهُ ... فَـأَنْزَلَ للحجـاجِ نَـصْراً مُـؤَزَّرَا
مَلائِكَـةً مَـنْ يَجْعَـلِ اللهُ نَـصْرَهُمْ ... لَـهُ يَـكُ أَعْلَـى فِـي القِتَـالِ وَأَصْـبَرَا

---

(١) شعر الأخطل ص ٤٠٥.
(٢) ديوان العجاج ص ٣٦٨.
(٣) ديوان جرير ١/٢٤٤.
(٤) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٠٠.

فجعل الشاعر الحجاج يدعو الله في وقت ضنك وقد تقارب الصفان وبدأ غبار المعركة يتطاير، بل ليس الحجاج وحده الذي يدعو فكلا الفريقين يدعو فاختار الله النصر للحجاج، وأنزل مع النصر ملائكة يرفعون قدر من يقاتلون معه.

وحرب الحجاج عموماً في نظر الشعراء مرتبطة أساساً بالدين فهي حرب لنصر الدين، قال الأخطل[1]:

وَالخَيلُ يُتْعِبُهَا عَلَى عِلاتِهَا للهِ مُنْتَصِبُ الفُؤَادِ شَكُورُ

والأمر كذلك في رأي الفرزدق[2]:

وَكَانَتْ ظُبَاتُ المِشْرَفِيَّةِ قَدْ شَفَى بِهَا الدِّينَ وَالأَضْغَانَ ذَاتَ الخَوَالِفِ[3]

لذلك هو أشبه ما يكون بخالد بن الوليد سيف الله المسلول (ت ٢١هـ) في نظر العُديل بن الفرخ[4]:

فَأَنْتَ كَسَيفِ اللهِ في الأَرْضِ خَالِدٍ تَصُولُ بِعَونِ اللهِ حِينَ تَصُولُ

لذا ففقد الحجاج كان فقداً لمقاتل يرعى الدين عن طريق السيف[5]:

وَمَاتَ الذِي يَرْعَى عَلَى النَّاسِ دِينَهُمْ وَيَضْرِبُ بِالهِنْدِي رَأسَ المُخَالِفِ

ولارتباط الحجاج بالناحية الدينية جعل الشعراء حربه تلك جهادا،فقال جرير[6]:

وَبَسْطُ يَدِ الحجاجِ بِالسَّيْفِ لَمْ يُكُنْ سَبِيلُ جِهَادٍ وَاسْتُبِيحَ الحَلَائلُ

وقال الفرزدق[7]:

فَجَرِّدْ لَهُمْ سَيْفَ الجِهَادِ فَإِنَّمَا نُصِرْتَ بِتَفْوِيضٍ إِلى ذِي الفَوَاضِلِ

فالشعراء في حديثهم عن شخصية الحجاج الحربية لا ينسون أن يربطوها بالدين، فالحجاج إنسان متدين لا يغيب الله عن باله في أصعب الأوقات وقد قربت الصفوف وعلا غبار المعركة، وحروبه إنما هي نوع من الجهاد لأنها على الخارجين عن الإسلام.

---

(١) شعر الأخطل ص ٤٠٥.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٥٣١/٢.

(٣) الخوالف: الشرور والضغائن.

(٤) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٣٦٢/٢٢.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٥٣٠/٢.

(٦) ديوان جرير ٤٠٣/١.

(٧) شرح ديوان الفرزدق ٦٩٦/٢.

الشكوى إلى الحجاج:

ومن تمام الناحية الدينية والإدارية في القائد العسكري الجيد أن يفتح بابه للمظالم، وكذلك فعل الحجاج ففتح بابه للمظالم، فبرز شعر الشكوى الذي يدل على أن الجنود يجدون .لاريب .أذنا صاغية من الحجاج؛ فهذا أحد جنود المهلب يرفع شكوى في المغيرة ابن المهلب (ت ٨٢هـ) نفسه، لم تمنعه مكانة المغيرة، ومكانة أبيه من الحجاج من أن يشكوه لاستئثاره بالحصاد وعدم توزيعه في الجند[١]، قال[٢]:

وَلَو عَلِمَ ابنُ يُوسُفَ مَا نُلاقِي ... مِنَ الآفَاتِ وَالكُرَبِ الشِّدَادِ

لَفَاضَتْ عَيْنُهُ جَزَعًا عَلَينَا ... وَأَصْلَحَ مَا اسْتَطَاعَ مِنَ الفَسَادِ

أَلا قُلْ لِلأَمِيرِ جُزِيْتَ خَيرًا ... أَرِحْنَا مِنْ مُغِيرَةَ وَالرَّقَادِ[٣]

فَمَا رُزِقَ الجُنُودُ بِهَا قَفِيزا ... وَقَدْ سَاسَتْ مَطَامِيرُ الحَصَادِ

فالشاعر عنده يقين بأن الحجاج لو علم حقيقة أمورهم لجزع عليهم وأسرع لإصلاح الفساد، فهو في نظر الشاعر ليس بالأمير الذي لا يهتم إلا بإصلاح شؤون القادة وطلب مودتهم.

كذلك شكا أهل خراسان أميرهم "أمية بن عبد الله" إلى الحجاج لأنه قعد عن الجهاد[٤]، إذ قالوا[٥]:

أَحجَاجُ بنُ يُوسُفَ أَنْتَ رَاعٍ ... وَرَاعِي القَومِ يَحْفَظُ مَا أَضَاعُوا

وَإِنَّا مَعْشَرٌ مِنْ جَذْمِ قَيسٍ ... لَنَا فِي النَّاسِ مَكْرُمَةٌ وَبَاعُ

عَبَرْنَا حُقْبَةً وَلَنَا أَمِيرٌ ... جَبَانَ القَلْبِ ذُو خَوفٍ يَرَاعُ

ثم مضوا في شكواهم.

---

(١) انظر: المبرد: الكامل ٣/ ١١٤٨.

(٢) المبرد: الكامل ٣/ ١١٤٨. ١١٤٩.

(٣) الرُّقاد: الرجل الذي ضمه المهلب إلى ابنه المغيرة لجمع الخراج فاستأثرا به (المبرد: الكامل ٣/ ١١٤٨).

(٤) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٣.

(٥) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٣.

استعطاف الحجاج:

ومن الأنواع الشعرية التي برزت في مجال الحرب شعر الاستعطاف، إذ حُمل إلى الحجاج أحد أصحاب شبيب، فجاءت خلفه مجموعة كبيرة من النساء ذكر أنه يقوم عليهن، وتقدمت إحداهن مستعطفة الحجاج لفك أسره[1] قائلة[2]:

أحجاجُ لَوْ تَشْهَدْ مَقَامَ بَنَاتِهِ ... وَعَمَّاتِهِ يَنْدُبْنَهُ اللَيلَ أجْمَعَا

أحجاجُ إمَّا أنْ تَمُنَّ بِتَرْكِهِ ... عَلَيْنَا وَإمَّا أنْ تُقَتِّلَنَا مَعَا

فَمَنْ رَجُلٌ دَانٍ يَقُومُ مَقَامَهُ ... عَلَيْنَا فَمَهْلاً لا تَزِدْنَا تَضَعْضُعَا

فتأثر الحجاج بشعرها كثيراً، ورحم هؤلاء النسوة ورد قيمهن عليهن، وزاد في عطائه لما عرف من ضخامة مسؤوليته[3]، وهذا الخبر وإن دل على تسامح الحجاج مع خصومه إلا أنه يدل في الوقت نفسه على تأثره بما يجري أمامه من شعر.

شكر الحجاج والاعتراف بجميله:

وبرز مع شعر الحرب نوع آخر من الشعر ـ قد يكون قليلاً في الأدب العربي، هو شعر الشكر والاعتراف بالجميل، إذ عفا الحجاج عن أحد أصحاب أعتى أعدائه "قطري"، وقد أتي به أسيراً فمّن عليه لصداقة كانت تربط بينهما، فانطلق لسان هذا الخارجي بالشكر للحجاج لما طلب منه قطري معاودة محاربة الحجاج[4]، فقال[5]:

أأقَاتِلُ الحجاجَ عَنْ سُلْطَانِهِ ... بِيَدٍ تُقِرُّ بِأنَّهَا مَولاتُهُ؟

مَاذَا أقُولُ إذَا وَقَفْتُ إزَاءَهُ ... فِي الصَّفِ وَاحْتَجَّتْ لَهُ فَعَلاتُهُ؟

أأقُولُ جَارَ عَلَيَّ؟ لا إنِّي إذَنْ ... لأحَقُّ مَنْ جَارَتْ عَلَيْهِ وُلاتُهُ

فالشاعر يدين بالولاء للحجاج الذي يصوره ملك صاحب أياد بيضاء في أبيات طويلة

---

(١) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٧٠.

(٢) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٧٠ـ ٧١.

(٣) انظر: ابن أعثم الفتوح ٧/ ٧١.

(٤) انظر: الصولي: أخبار أبي تمام ص ٢٠٥.

(٥) الصولي: أخبار أبي تمام ص ٢٠٦.

تدل على تصميم هذا الخارجي على عدم معاودة قتال الحجاج وإن لم يتخل عن مذهبه.

وبهذا يلاحظ أن سمات الحجاج الحربية كانت هيَ الطاغية على شعر الشعراء، وقد تتبعوا دقائق شخصيته الحربية وصوروها في أشعارهم، ومن خلال شعر الحرب برزت أنواع شعرية أخرى كالاستعطاف والشكوى والشكر.

هيبة الحجاج:

وللحجاج هيبته خارج نطاق الحروب والأيام، هيبة تلفت النظر وتسترعي الانتباه، فالشعراء يظهرون خوفاً ورعباً شديداً من الحجاج ويتمادون في ذلك، والشاعر رجل والرجل يأنف من إظهار خوفه من رجل آخر بهذه الطريقة الصريحة المبالغ فيها، إلا أن الحجاج على ما يبدو كان له تأثير آخر في نفوس الرجال.

وشخصية عرفت بالأنفة والترفع مثل الفرزدق الذي يفخر دوماً بأنه معمم مخول لا يأنف من إفراد مقطوعتين شعريتين في التعبير عن خوفه من الحجاج قال في إحداهما[1]:

إِذَا مَـا بَـدَا الحجـاجُ لِلنَّـاسِ أَطْرَقُـوا ... وَأَسْـكَتَ مِـنْهُمْ كُـلُّ مَـنْ كَانَ يَنْطِقُ

فَمَـا هُـوَ إلا بَائِـلٌ مِـنْ مَخَافَـةٍ ... وَآخَـرُ مِـنْهُمْ ظَـلَّ بِـالرِّيقِ يَـشْرَقُ

وَطَارَتْ قُلُوبُ النَّاسِ شَـرْقاً وَمَغْرِباً ... فَمَـا النَّـاسُ إلا مُهْجِـسٌ أَوْ مُلَقْلِـقُ[2]

فجميع الناس خائفين منه دون استثناء، وجميع صور الخوف تظهر إذا ظهر الحجاج ما بين إطراق وسكوت وتبول لا إرادي وشرق بالريق وغيره. كل هذه الهيبة إذا بدا الحجاج للناس ولم يتهددهم بعد وليس لهم جريمة وليس غاضباً منهم، فكيف إذا ما كان لهم جريمة والحجاج ساخط عليهم؟.

أما الذين أغضبوا الحجاج أو غضب هو عليهم وهم كثر، فيصورون هيبة الحجاج وتأثيره في نفوسهم في صور شتى تتفق في إظهار شدة الرعب من الحجاج، كقول محمد بن عبد الله النميري (ت نحو ٩٠هـ)[3]:

أَخَـافَ مِـنَ الحجـاجِ مَـا لَـسْتَ خَائِفـاً ... مِـنَ الأَسَـدِ العِرْبَـاضِ لَـمْ يُثْنِـهِ ذُعْـرَ

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٩٣.

(٢) ملقلق: يهذي بلا عقل.

(٣)أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٦/ ١٨٨.

أخَـــافُ يَدَيْـــهِ أنْ تَنَـــالا مَقَـــاتِلِي ... بِأبْيضَ عَضْبٍ لَيسَ مِنْ دُونِهِ سِتْرُ

وقال غوية بن سلمى[1]:

وَدِدْتُ مَخَافَـــةَ الحجـــاجِ أنّـــي ... بِكَابُـــلَ فِـــي..... شَـــيْطَانٍ رَجِـــيمِ
وَدِدْتُ مَخَافَـــةَ الحجـــاجِ أنّـــي ... مِـــنَ الحِيتَـــانِ فِـــي بَحْـــرٍ أعُـــومُ

وهنا أقوى الشاعر، فلما سئل قال: لو كان في عقل ما أقويت[2]، فكأنه عبر قولاً وعملاً على شدة خوفه من الحجاج. وقال البراء بن قبيصة[3]:

أُخَـوَّفُ بِالحجـاجِ طَـوْراً وَمَـنْ يَكُـنْ ... طَرِيـــداً لِلَيْـــثٍ بِـــالعِرَاقَينِ يَفْـــرَقِ
كَـــأنَّ فُـــؤادي بَـــينَ أظْفَـــارِ طَـــائرٍ ... مِـنَ الخَـوفِ فِـي جَـوِّ السَّمَاءِ مُعَلَّـقِ
حِـــذَارَ امـــرئٍ قَـــدْ يَعْلَـــمُ اللهُ أنَّـــهُ ... مَتَـى مَـا يَعِـدْ مِـنْ نَفْسِـهِ الشَّرَّ يَصْدُقِ

فكل الشعراء يذكرون الخوف صراحة، بل كلهم يكررون لفظة الخوف في كل بيت تقريباً. ويصور الشاعر الأول خوفه بأنه شرٌّ من خوفه من الأسد العرباض، ويعلل الشاعر الأخير خوفه بأنه ليس مستغرباً لأنه خائف من ليث، ويزيد في البيت الأخير تعليلاً آخر لخوفه من الحجاج، وهو علمه بأن الحجاج متى أوعد نفذ.

وقد تفنن الشعراء في التعبير عن خوفهم حتى ربطوا بينه وبين نومهم، فقال عبيد بن أيوب[4]:

أذِقْنِيَ طَعْمَ النَّومِ أوْ سَلْ حَقِيقَةً ... عَلَيَّ فَإنْ قَامَتْ فَفَصِّلْ بَنَانِيَا

فعبيد يستجدي الحجاج النوم، لأنه ما دام الحجاج غاضباً منه فلن يذوق النوم. وجرير

---

(١) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: الوحشيات وهو الحماسة الصغرى، تحقيق: عبد العزيز الميمني وزاد في حواشيه: محمود محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف، ط٢) ص ٢٩٥.

(٢) انظر: أبا تمام: الوحشيات ص٢٩٥.

(٣) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي: تعليق من أمالي ابن دريد، تحقيق: السيد مصطفى السنوسي (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ط١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤) ص ٨٣.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/ ٣٠.

قال[1]:

وَمَا ذُقْتُ طَعْمَ النَّومِ إلا مُفَزَّعاً وَمَا سَاغَ لي بَيْنَ الحَيَازِمِ رِيْقُ

فجرير يذوق طعم النوم، لكنه نوم الفزع الذي قد يكون السهر أجدى منه.

وهذا نويفع بن لقيط الأسدي (ت نحو ٩٠هـ) يشبه نومه بنوم السليم أي اللديغ، قال[2]:

أُسَهَّدُ مِنْ نَوْمِ العِشَاءِ كَأَنَّنِي سَلِيمٌ يُغَرُّ الضِّرْوَ بِالنَّبَوانِ[3]

فالسليم يمنع من النوم لئلا يسري السم في عروقه، ونويفع يمنعه الخوف من لدغة الحجاج من النوم. أما البراء بن قبيصة فالهم الذي يملأ صدره من خوف الحجاج أصابه بالأرق، فقال[4]:

أَرِقْتُ بِأَحْسَاءِ العُنَابِ وَمَنْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ أَضْيَافِي مِنَ الهَمِّ يَأْرَقِ

والملاحظ أن عبيد بن أيوب أكثرهم قدرة على استغلال النوم في إظهار الخوف الشديد من الحجاج، إذ نفى عن نفسه القدرة على النوم تماماً، ثم جعل يستجديه من الحجاج الذي كأنما سلبه منه لأن خوفه من الحجاج هو السبب في ذلك. أما بقية الشعراء فهم ينامون إلا أن نومهم يشوبه الفزع أو السهاد أو الأرق، وإن كان في تشبيه نويفع بن لقيط لنومه بنوم السليم جمالاً جاء من اقتباسه من صميم البيئة والعادات السائدة فيها.

وربط الشعراء بين الخوف وقلوبهم، إذ الخوف دائما محله القلب، فقال عبيد بن أيوب[5]:

خَلَعْتَ فُؤَادِي فَاسْتَطَارَ فَأَصْبَحَتْ تَرَامَى بِهِ البِيْدُ القِفَارُ تَرَامِيَا

فلشدة خوفه كأنما خلع قلبه من جوفه، وأخذ يطير بين القفار الواسعة فلا يلتمسه الشاعر أبداً، أما نويفع بن لقيط فقال[6]:

---

(١) ديوان جرير ١/٢٧٣.

(٢) ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر (القاهرة، مطبعة المدني) ٢/٦٤٤.

(٣) يغر: يؤكل. الضرو: شجر يتداوى به. النبوان: موضع.

(٤) ابن دريد: تعليق من أمالي ابن دريد ص ٨٣.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/ ٣٠.

(٦) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢/٦٤٤.

عَلَيْهِ تَمِيْمَاتٌ كَأَنَّ فُؤَادَهُ جَنَاحَا عُقَابٍ دَائِمُ الخَفَقَانِ

فقلبه كجناحي الطائر الدائم الخفقان، فلا يكاد يهدأ لشدة رعبه، والبراء بن قبيصة جعل قلبه معلقاً بين أظفار طائر فقال[1]:

كَأَنَّ فُؤَادِي بَينَ أَظْفَارِ طَائِرٍ مِنَ الخَوفِ في جَوِّ السَّمَاءِ مُعَلَّقِ

فقلبه معلق بين السماء والأرض يتُوقع أن يسقط في أية لحظة. فهؤلاء الشعراء فقدوا السيطرة على قلوبهم والتحكم فيها لما لبسهم من خوف الحجاج وهيبته، وهذه الهيبة دفعتهم للتأمل في تأثيرها في نفوسهم فوجدوها تسكن القلب وتطرد النوم من العين.

ويضيف الشعراء في أبياتهم عن هيبة الحجاج تصوير قدرته وبعد حيلته، فهو ليس بالرجل السهل الذي يستطيع عدوه الاختباء منه، كما قال الفرزدق [2]:

وَلَوْ أَنِّي بِصِينِ اسْتَانِ أَهْلِي وَقَدْ أَغْلَقْتُ مِنْ هَجَرَينِ بَابَا
عَلَيَّ رَأَيْتُ يَا ابنَ أَبِي عَقِيلٍ وَرَائِي مِنْكَ أَظْفَاراً ونَابَا

فلو كان الفرزدق مغلقا على نفسه مساحة كبيرة من هجر إلي الصين فهو واثق بأن الحجاج لابد واصل إليه بعقابه. وقال العديل بن الفرخ[3]:

فَلَو كُنْتُ فِي سَلْمَى أَجَا وَشِعَابِهَا لَكَانَ لِحجاجٍ عَلَيَّ دَلِيلُ

فالعديل لو كان في جبلي أجا وسلمى مختبئاً في شعابها لوجد الحجاج من يدله عليه، فلا فائدة من الاختباء. وقال نويفع بن لقيط[4]:

لَوْ كُنتُ فِي العَنْقَاءِ أَوْ فِي عِمَايَةٍ ظَنَنْتُكَ إلا أَنْ تَصُدَّ تَرَانِي
تَضِيقُ بِيَ الأَرْضُ الفَضَاءُ لِخَوفِهِ وَإِنْ كُنتُ قَدْ طَوَّفْتُ كُلَّ مَكَانِ

فهو واثق أن الحجاج سيجده حتى لو اختبأ في العنقاء أو عماية، واختار هذين الجبلين

---

(١) ابن دريد: تعليق من أمالي ابن دريد ص ٨٣.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٩٢/١.

(٣) المبرد: الكامل ٢٤٢/٢.

(٤) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٦٤٣/٢-٦٤٤.

لأنهما أكثر جبال العرب وعورة، وقد اعتاد الفارون من السلطان الاختباء فيها، واعترفوا بحمايتها لهم كما قال القتال الكلابي[1]:

جَـزَى اللهُ خَيْـراً وَالجَـزَاءُ بِكَفِّـهِ عِمَايَـةَ عَنَّـا أمَّ كُـلِّ طَرِيْـدِ
فَـلا يَزْدَهِيهَـا القَـومُ إِنْ نَزَلُـوا بِهَـا وَإِنْ أَرْسَـلَ السُّلْطَانُ كُـلَّ بَرِيْـدِ

أما الفارون من الحجاج فلا تحميهم! بل تضيق عليهم الأرض بما رحبت كما ذكر نويفع بن لقيط.

وفي تصوير هيبة الحجاج في نفوس الفارين منه وشعورهم الأكيد بقدرته على الوصول إليهم يزيد جرير على معاني غيره من الشعراء زيادة لطيفة، قال[2]:

وَخِفْتُكَ حَتَّى اسْتَنْزَلَتْنِي مَخَافَتِي وَقَدْ حَالَ دُونِي مِنْ عِمَايَةَ نِيقُ[3]

وقال أيضاً[4]:

وَمَازِلْتَ حَتَّى أَسْهَلَتْ مِنْ مَخَافَةٍ إِلَيْكَ اللواتِي فِي الشُّعُوقِ العَوَاقِلُ[5]

فالحجاج لم يبحث عن جرير أو غيره من الفارين وجرير مع تحصنه في عماية. وما أدراك ما عماية. وغيره من الفارين المتحصنين في شقوق الجبال العالية ينزلهم خوفهم من الحجاج من معاقلهم، ويسلمون له أنفسهم لشدة خوفهم منه وتأكدهم من قدرته على الوصول إليهم.

أما الفرزدق فجدد في مكان اختبائه، وأكد أكثر إمكانية وصول الحجاج إليه، فقال[6]:

وَلَوْ حَمَلَتْنِي الرِّيحُ ثُمَّ طَلَبْتَنِي لَكُنْتُ كَشَيءٍ أَدْرَكَتْهُ مَقَادِرُهْ

فهو لم يختبئ في الجبال الحصينة أو البلاد البعيدة، بل حملته الرياح واختبأ بين السماء والأرض، ومع ذلك لو طلبه الحجاج فسيدركه. فمجرد طلب الحجاج كالقدر

---

(١) ديوان القتال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار الثقافة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) ص٤٥.

(٢) ديوان جرير١/٤٠٣.

(٣) نيق: نيق الجبل أي أعلاه.

(٤) ديوان جرير١/٤٠٣.

(٥) الشعوف: أعلى الجبال. العواقل: المتحرزات.

(٦) الصولي: أخبار أبي تمام ص ٢٠. ولا يوجد هذا البيت في ديوان الفرزدق.

المحتوم لابد واقع.

بل مجرد ذكر اسم الحجاج له هيبة تنفطر لها قلوب الفارين منه، قال العديل بن الفرخ[1]:

أُخَــوَّفُ بِالحجــاجِ حَتَّــى كَأَنَّمَــا ... يُحَـرَّكُ عَظْـمٌ فِـي الفُـؤَادِ مَهِـيضُ[2]

وَدُونَ يَـدِ الحجــاجِ مِــنْ أَنْ تَنَــالَنِي ... بِــسَاطٌ لأَيْــدِي الــيَعْمُلاتِ عَــرِيضُ

مَهَامَــةٌ أَشْــبَاهٌ كَــأَنَّ سَــرَابَهَا ... مُــلاءٌ بِأَيــدِي الغَاسِــلاتِ رَحِــيضُ[3]

فحتى القلة من الشعراء الذين أحسوا بأنهم أحسنوا الاختباء من الحجاج لا يعطيهم هذا الأمان،بل تتفطر قلوبهم رعباً كلما ذكر اسم الحجاج أمامهم.

وللحجاج عقاب صارم صوره الشعراء فقال الفرزدق [4]:

فَعَفْـوكَ يَـا ابـنَ يُوسُـفَ خَيـرُ عَفْـوٍ ... وَأَنْــتَ أَشَــدُّ مُنْــتَقِمٍ عِقَابَــا

رَأَيْــتُ النَّــاسَ قَــدْ خَــافُوكَ حَتَّــى ... خَــشُوا بِيَــدَيْكَ أَوْ فَرَقُــوا الحِــسَابَا

فالناس قد خشوا عقاب الحجاج حتى أحسوا بأنهم سيسقون قدرهم على يديه.

وقال الفرزدق على لسان زوجه النوار تحذره الحجاج[5]:

تَــنَحَ عَــنِ الحجــاجِ إِنَّ زِحَامَــهُ ... شَــدِيدٌ إِذَا أَغْــضَى عَلَــى مَــنْ يُزَاحِمُــه

وَمَــنْ يَــأْمَنِ الحجــاجَ وَالجِــنُّ تَتقِــي ... عُقُوبَتَــــهُ إلا ضَــــعِيفٌ عَزَائِمُــــه

فمــن يزاحــم الحجــاج لا يــأمن عقوبتــه، وكيــف يأمنهــا والجــن تتقيهــا. وجريــر أيــضاً يستنكر على من يأمن عقاب الحجاج إذ قال[6]:

وَمَن يَأمَنِ الحجاجَ أَمَّا عِقَابُهُ ... فَمُرٌّ وَأَمَّا عَقْدُهُ فَوَثِيقُ

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٩٢/١.

(٢) المهيض: العظم الذي كسر ثم جبر ثم كسر.

(٣) الرحيض: المغسول.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٩٢/١.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٧٦٣/١.

(٦) ديوان جرير ٢٧٣/١.

بل بلغ الخوف في الناس من الحجاج أنهم يخافون وعيده وتهديده أشد الخوف، قال الفرزدق[1]:

إِذَا وَعَـدَ الحجـاجُ أَوْهَـمَّ أَسْـقَطَتْ ... مَخَافَتُـهُ مَـا فِـي بُطُـونِ الحَوَامَـلِ

لَـهُ صَـوْلَةٌ مَـنْ يُوقَهَـا أَنْ تُـصِيبَهُ ... يَعِشْ وَهْوَ مِنْهَا مُسْتَخِفٌّ الخَصَائِلِ

فصولة الحجاج من لم تصبه يعش مرتعداً طول حياته منها، فكيف بمن أصابته، ولاتقاء هذه الصولة يعرضُ العَديل بن الفرخ الحل إذ قال[2]:

تَرَى الثَّقَلَينِ الجِنَّ وَالإِنْسِ أَصْبَحَا ... عَلَى طَاعَةِ الحجاج حِيْنَ يَصُولُ

فحتى الجن يسيرون بأمره حين يصول خوفاً من عقابه.

فالحجاج له هيبة كبيرة في نفوس معاصريه من الشعراء تملأ قلوبهم بالخوف، وتطرد عن عيونهم النوم، مع ثقة لديهم بأنه لا مهرب من الحجاج ولا ملجأ في الأرض يحميهم من وصوله إليهم، والحجاج كما يصوره معاصروه من الشعراء شديد الصولة، قاسي العقوبة.

والشعر الذي يتحدث عن هيبة الحجاج لا يرمي إلى تصوير مدى الرعب الذي ينشره في قلوب الآخرين كمصدر للشر أو الاعتداء، أو محاولة الانتقام من الحجاج برسمه منبعاً للخوف كالجن والغول كلا ولكن من الواضح أنه نوع من أنواع الاعتذار إلى الحجاج، اعتذار مبطن بصورة الخوف التي رسمها الشعراء على نفوسهم لتبعث الرحمة والتعاطف في قلب الحجاج عليهم.

والدليل على أنهم عمدوا لهذا الأسلوب للاعتذار إلى الحجاج أن هؤلاء الشعراء أجمعوا على التحدث إلى الحجاج بأسلوب عالي الأدب، ولا توجد في شعرهم كلمة نابية في حق الحجاج، وإن أتبعها بعضهم في حق نفسه كغوية السلمي، ثم إنهم عمدوا إلي تصوير الحجاج بصورة القوي القادر على الإمساك بخصمه دون ختَل أو غدر، وهو شديد العقوبة ولكن بعدل كما قال جحدر العكلي (ت نحو: ١٠٠هـ)[3]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٦٩٤/١.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣٦٣/٢٢.

(٣) أبو على القالي: الأمالي ٢٨٢/١.

يُحَاذِرُ صَوْلَةَ الحجاج ظُلْماً وَمَا الحجاجُ ظَلاَمٌ لِجَاني

وهم يعلنون بأنهم ليسوا ضعفاء، ويجدون من يحميهم من كل أحد إلا الحجاج[1]:

وَلَـــو غَيْـــرُ حجـــاجٍ أَرَادَ ظُلَامَتـــي حَمَتْنِي مِنَ الضَّيمِ السُّيوفُ الفَوَاتِكُ

وَفِتْيَـــانُ صِـــدْقٍ مِـــنْ رَبِيْعَـــةَ قُـــصْرَةً إِذَا اخْتَلَفَـــتْ يَـــوْمَ اللِقَـــاءِ النَّيَـــازِكُ[2]

وهذا أدعى لاستجلاب الرحمة، وقد يعمدون إلى إشهار الطاعة والتقرب إلى الحجاج بمن يحب بعد إظهار الخوف الشديد منه كما فعل نويفع بن لقيط [3]:

وَآلَيـــتُ لا آتِيـــكَ إلا مُـــسَالِماً مَعِـي مِنْـكَ يَـا ابـنَ الأكْـرَمِينَ أَمَـاني

أَعُـوذُ بِقَبْـرَي يُوسُـفٍ وابـنَ يُوسُـفٍ أَخِيـكَ وَبِـالقَبْرِ الـذي بِعَـدانِ

سَـمِيَّ نَبِـي اللهِ، مِـنْ أَنْ تَنَـالَنِي يَـدَاكَ وَمَـنْ يَغْتَـرُّ بِالحَـدَثَانِ؟

فهو يتقرب له بقبر والده يوسف وأخيه محمد وابنه محمد ليبعث الرأفة في قلبه بعد أن استغل عامل إظهار الخوف الشديد من الحجاج.

بالإضافة إلى أن جميع هؤلاء الشعراء فعلاً كانوا ذوي ذنوب ويلتمسون العفو من الحجاج، وفعلاً كان أسلوبهم هذا ناجحاً وموفقاً إذ حصلوا جميعاً على العفو من الحجاج بل حبا بعضهم بصلات[4]. وهذه صورة جديدة في الاعتذار اتفق عليها عدد من الشعراء وتوجهوا بها إلى شخص واحد هو الحجاج بن يوسف.

وهنا أمر يثير التساؤل، وهو لماذا أجمع هؤلاء الشعراء على هذا الأسلوب في الاعتذار بدل الاعتذار المباشر؟

إن الحجاج هنا أشبه ما يكون بقائد عسكري، لا أمير مدني وعسكري كما أرادته الخلافة الأموية، فظروف عصر الحجاج وظروف ولايته أجبرته على التركيز على الجانب

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٧٣/١٨ والشعر لأعشى ربيعة.

(٢) قصرة: دنية قريب، النيازك: الرماح القصيرة.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٦٤٤/٢-٦٤٥.

(٤) على سبيل المثال انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣٦١/٢٢. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد: بغية الطلب في تاريخ حلب (فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ١٤٠٩هـ. ١٩٨٩م) ٤٧/٥.

الحربي وصفات القائد العسكري مما لمسة الشعراء فيه فعمدوا هم أيضاً للتركيز على هذه الناحية للوصول إلى العفو.

أما الاعتذار الصريح والمباشر فموجود في مثال واحد عند مالك بن أسماء بن خارجة (ت نحو ١٠٠هـ)، قال[١]:

لِكُلِّ جَوَادٍ عَثْرَةٌ يَسْتَقِيلُهَا ... وَعَثْرَةُ مِثْلِي لاتُقَالُ مَدَى الدَّهْرِ
فَهَبْنِي يَا حجاجُ أَخْطَأْتُ مَرَّةً ... وَجُرْتُ عَنِ المُثْلَى وَغَنَّيْتُ بِالشِّعْرِ
فَهَلْ لِي إِذَا مَا تُبْتُ عِنْدَكَ تَوْبَةٌ ... تَدارِكُ مَا قَدْ فَاتَ فِي سَالِفِ العُمْرِ

فمالك بن أسماء يعتذر بطريق مباشر، فهو يقدم العذر لنفسه، ثم يوضح ذنبه وهو الغناء، وأخيراً يعلن التوبة ويطلب الغفران. فهل لمكانة مالك بن أسماء من أهل الكوفة، ثم علاقة المصاهرة مع الحجاج دخل في اتباعه هذا الأسلوب وانحرافه عن الأسلوب الذي اتبعه معظم شعراء عصره؟؟

وعموماً هذا الاعتذار يدل على الهيبة التي تملأ قلوب حتى كبار شخصيات عصره منه، وعدم تحرجهم من الاعتذار الصريح له، فعلية القوم تأنف من الاعتذار المباشر ولكن مالك بن أسماء لا ينحرج لأنه كما يبدو أن مكانة الحجاج فوق كل مكانة عندهم ما عدا الخليفة كما قالت ليلى الأخيلية[٢]:

حجاجُ أَنْتَ الذي مَا فَوقَهُ أَحَدٌ ... إلا الخَلِيفَةُ وَالمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ

إصلاحات الحجاج:

ومع انشغال الحجاج بالحروب والأيام والثورات الكثيرة المتتالية لم ينسَ الأوضاع الداخلية في منطقة إمارته، ومما مدح به الحجاج من إصلاحاته الداخلية قول جرير[٣]:

وَثِنْتَانِ فِي الحجاجِ لا تَرْكُ ظَالِمٍ ... سَوِيّاً وَلا عِنْدَ المُرَاشَاةِ نَائِلُ
وَمَنْ غَلَّ مَالَ اللهِ غُلَّتْ يَمِينُهُ ... إِذَا قِيلَ أَدُّوا لا يَغُلَّنَّ عَامِلُ
وَمَا نَفَعَ المُسْتَعْمَلِينَ غَلُولَهم ... وَمَا نَفَعَتْ آلَ العُصاةِ الجَعَائِلُ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٧/١٦٥-١٦٦.
(٢) ديوان ليلى الأخيلية ص ٦٣.
(٣) ديوان جرير ١/٤٠٣.

قَـدِمْتَ عَلَـى أَهْـلِ العِـرَاقِ وَمِـنْهُمُ مُخَـالِفُ دِيـنِ المُـسلمين وَخَـاذِلُ
فَكُنْـتُ لِمَـنْ لا يُبْـرِيءُ الـدينُ قَلْبَـهُ شِـفَاءً وَخَـفَّ المُـدْهِنُ المُتَثَاقِـلُ

فهو يمدح الحجاج بأخذه على أيدي الظالمين وعدم قبوله للرشوة وأيضاً محافظته على أموال الدولة بمنع الغلول، ثم ذكر كيف أنه قدم على العراق وهي في حالة بائسة من مخالفة دين الله وخذلانه، فكان له الفضل بعد الله في إرجاع الدين لمكانته في العراق، وهذا أسلوب بديع في إيضاح إصلاحات الحجاج الداخلية، وهو أسلوب التذكير بماضي العراق وحاضره لتتجلى الإصلاحات في أبهى صورها، وقد عمد الفرزدق إلى أسلوب الموازنة هذا بين حالي العراق قبل الحجاج وبعده فقال[1]:

شَـفَيْتَ مِـنَ الـدَّاءِ العـراقَ فَلَـمْ تَـدَعْ بِـهِ رِيْبَـةً بَعْـدَ اصـطِفَاقِ الـزَّلازِلِ
وَكَـانُوا كَـذي دَاءٍ أَصَـابَ شِـفَاءَهُ طَبِيبٌ بِـهِ تَحْتَ الشَّرَاسِيفِ دَاخِلِ[2]
وَكُنَّا بِـأَرْضٍ يَا ابنَ يوسفَ لم يَكُنْ يُبَـالي بِهَـا مَـا يَرْتَـشي كُـلُّ عَامِـلِ
يَـرَونَ إذا الخَـصْمَانِ جَـاءَ إلَـيهمُ أَحَقَّهُمَـا بِـالحقِّ أَهْـلُ الجَعَائِـلِ
وَمَـا تُبْتَغَى الحاجاتُ عِنْدَكَ بِالرُّشَى وَلا تُقْتَـضَى إلا بِمَـا فِـي الرَّسَـائِلِ
رَسَـائِلِ ذِي الأَسْـمَاءِ مَـنْ يَدْعُـهُ بِهَـا يَجِـدْ خَيْـرَ مَـسْؤولٍ عَطَـاءً لِـسَائِلِ

فالحجاج شفى العراق مما به من علل كثيرة، وكان كالطبيب الحاذق الذي شفى مريضه تماماً، ثم قال مقارناً: كنا بأرض (أي العراق) لا يخاف العمال فيها إذا ارتشوا بل إن الخصمين إذا حضرا لدى القاضي كان من المعروف أن صاحب الحق هو من يقدم الرشوة. أما في عصرك - أيها الحجاج - فلا يصل المرء على ما يريده بالرشوة، بل بما يثبت بالبينة.

ويلاحظ التركيز على الظلم والرشوة والغلول في أرض العراق قبل قدوم الحجاج وكيف عمل الحجاج على منعها ونشر العدل وتصحيح الوضع المادي للعراق.

ولم تقتصر إصلاحات الحجاج على منطقة العراقين (الكوفة والبصرة) بل امتدت لتشمل المناطق القاصية والبعيدة مما يدخل حيز إمارته، فالحُجاج أمنوا على أنفسهم

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٦٩٥.

(٢) الشراسيف: أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن.

قال جرير[1]:

وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ وَلَقَدْ مَنَعْتَ حقَائبَ الحُجَّاجِ

والرعاة البعيدون عن الناس أيضا[2]:

وَمُهْمَلَـــةٍ لَمَّـــا أَتَاهَـــا نَعِيُّـــهُ أَرَاحَـتْ عَلَيْهَـا مُهْمَـلاتِ التَّنَـايف[3]

وَقَالَـــتْ لِعَبْـــدَيْهَا أَرِيْحَـــا فَعَقِّـــلا فَقَـدْ مَـاتَ رَاعِـي ذَوْدِنَـا بِـالطَّرَائفِ[4]

وأمن أيضاً الرجال والنساء الكبيرون في السن[5]:

أَلَـــمْ تَعْلَمُـــوا أَنَّ الَّـــذِي تَدْفُنُونَـــهُ بِـهِ كَـانَ يُرْعَـى قَاصِـيَاتُ الزَّعَـانِفِ[6]

وَلَمْ يَكُ دُونَ الحُكْمِ مَالٌ وَلَمْ تَكُنْ قُـوَاهُ مِـنَ المُـسْتَرخِيَاتِ الـضَّعَايفِ

فطريق الحُجاج على بعده، والرعاة على تقصيهم مع قطعانهم، وكبار السن من الرجال والنساء ممن يعيشون في البلاد النائية، كل أولئك استطاع الحجاج حمايتهم مع صعوبة هذا الأمر على غير الحجاج الذي لم تكن قوته مسترخية ضعيفة.

والحجاج في سيرته مع رعيته يراعي الله كثيراً، قال الفرزدق[7]:

وَلَـمْ أَرَ كَالحجـاجِ عَوْنـاً علـى التُّقَـى وَلا طَالِبـاً يَوْمـاً طَرِيْـدَةَ تَابـلِ[8]

وَمَـا أَصْـبَحَ الحجـاجُ يَتْلُـو رَعِيَّـةً بِـسِيرةِ مُخْتَـالٍ ولا مُتَـضَائلِ

فهو يراعي الله في أمور رعيته، ويسير على هديه في سياستهم، ولا يحكم فيهم إلا

---

(١) ديوان جرير ٤٠٣/١.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٥٣٠/٢.

(٣) مهملة: أي أهملت قطيعها لثقتها بالحجاج وقوته. التنايف: جمع تنوفة وهي القفر من الأرض.

(٤) الطرايف: أي أطراف الأرض.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٥٣١/٢.

(٦) قاصيات: ما تقص في المراعي وتباعد. الزعانف: الضفعاء من الرجال والنساء.

(٧) شرح ديوان الفرزدق ٦٩٥/٢.

(٨) تابل: التبل العدواوة.

بكتاب الله[1]:

بَنَــى قُبَّــةَ الإسْــلامِ حَتَّــى كَأَنَّمَــا ... هَـدَى النَّـاسَ مِـنْ بَعْـدِ الـضَّلالِ رَسُـولُ
إِذَا جَـارَ حُكْـمُ النَّـاسِ أَلْجَـأَ حُكْمَـهُ ... إِلَــى اللهِ قَــاضٍ بِالكِتَــابِ عَقُــولُ

لذلك لم يعرف عن الحجاج الظلم كما قال جحدر العكلي[2]:

يُحَاذِرُ صَوْلَةَ الحجاجِ ظُلْماً ... وَمَا الحجاجُ ظَلامٌ لِجَاني

شخصية الحجاج المدنية هذه أكسبته احترام كبار شخصيات الكوفة حينذاك، حتى إن الحكم بن المنذر بن الجارود سيد عبد القيس الذي يقول فيه الراجز[3]:

يَا حَكَمَ بنَ المنذرَ بنَ الجَارُودْ ... سُرَادِقُ المجدِ عليك مَمْدُودْ

لما أتي به إلى الحجاج ليسجنه قال الحكم بن المنذر[4]:

مَتَى مَا أَكُنْ في السِّجْنِ في حَبْسِ مَاجِدِ ... فَــإِنِّي علــى رَيْــبِ الزَّمَــانِ صَــبُورُ
فَلَوْ كُنْتُ خِفْتُ النَّكْثَ وَالغَدْرَ لم أُجبْ ... دُعَــاءَكَ إِذْ كَــانَ الأَمَــانَ غــرورُ
لَقَــدْ كنــتُ دَهْــراً مَــا أُخَــوَّفُ بِــالتي ... تَخَــافُ ولايَــسْطُو عَلَــيَّ أَمِيــرُ

فهو لا يرى عيباً في كون سجانه الحجاج الرجل الماجد كما نعته، بل قدم إليه بنفسه لعلمه ببعده عن الغدر والنكث، وإلا فإنه مع قبيلته في مأمن من كل أمير.

وتلك الشخصية الرزينة التي عرفت عن الحجاج جعلت المعاقبين يعلنون رضاهم بتعزير الحجاج لهم لعلمهم بعدله، قال رجل جلده الحجاج ثلاثين سوطا[5]:

وَلَيسَ بِتَعْزِيرِ الأَمِيرِ خِزَايَةً ... عَلَيَّ إِذا ما كنتُ غَيرَ مُرِيبِ

فالحجاج بعد قضائه على الخوارج وابن الاشعث أثبت قدرته العسكرية ثم أثبت

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٢٢/٣٦٢.

(٢) أبو علي القالي: الأمالي ١/٢٨٢.

(٣) ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد: الأشراف، تحقيق: وليد قصاب (الدوحة، دار الثقافة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م) ص٨٩.

(٤) ابن أبي الدنيا: الأشراف، ص ٨٩.

(٥) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار (بيروت، دار الكتاب العربي) ١/١٠٤.

قدرته المدنية بحسن سياسته في العراق فاستقامت العراق جميعاً للحجاج[1]، فقال الفرزدق ذاكراً ذلك معترفاً به[2]:

إنَّ ابـنَ يوسـفَ مَحْمُـودٌ خَلائِقُـهُ ... سِيانِ مَعْرُوفُـهُ فـي النَّـاسِ والمَطَـرُ
هُـوَ الـشِّهَابُ الـذي يُرْمَـى العَـدُوَّ بِـهِ ... وَالمِـشْرَفِيُّ الـذي تَعْـصَى بِـهِ مُـضَرُ
أحْيَـا العِـرَاقَ وَقَـدْ ثَلَّـتْ دَعَائِمَـهُ ... عَمْيَـاءُ صَـمَّاءُ لا تُبْقِـي وَلا تَـذَرُ

فهنا اعتراف بقدراته العسكرية والمدنية ثم بيان فضله على العراق منطقة إمارته وكيف أنه أنقذها بعد ما كادت تنتهي بسبب الفتن والقلاقل.

فالحجاج له دور كبير في تحقيق الأمن في العراق والمناطق المحيطة الداخلة ضمن حدود إمارته فمنع الظلم والرشوة والغلول وقطع دابر اللصوص وحمى الحُجاج وكبار السن والضعفاء، والمقاصين في المناطق البعيدة. فهل هذه هي إصلاحات الحجاج المدنية فقط ؟ هذه هي الإصلاحات التي يذكرها مادحوه من الشعراء فحسب، لكن إصلاحاته المدنية كثيرة جداً، ومن العجيب أن هجَّائي الحجاج قد ذكروا إصلاحاته الداخلية بأسلوبهم أكثر مما ذكرها مادحوه كما سيتضح فيما بعد، ولكن الباحث يتساءل ما هو السبب في إغفال إصلاحاته الداخلية من قبل مادحيه؟ قد تكون الحروب والثورات الكثيرة المتتالية التي خاضها الحجاج ألهمت الشعراء أبياتهم، واستأثرت باهتمامهم أكثر من إصلاحاته المدنية.

علاقة الحجاج بالخليفة الأموي:

وقد ربط الشعراء كثيراً بين الحجاج والخليفة الأموي، مما يشعر بأن قلوبهم مؤمنة بأن للحجاج مكانة رفيعة عند الخليفة فهم دائماً يربطون حروبه التي خاضها بالخليفة[3]:

أخَـا غَمَـرَاتٍ يَجْعَـلُ اللهُ كعبَـهُ ... هـو الظفـرُ الأعْلَـى إذا البـأسُ أصْحَرَا
مَعَـانٌ علـى حَـقٍّ وَطَالِـبُ بَيْعَـةٍ ... لأفْـضَلِ أحْيَـاءِ العَـشِيرةِ مَعْـشَرَا

---

(١) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٢٢.
(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٤٣٥.
(٣) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٢٩٥.

لآلِ أبـــي العَاصـــي تُـــرَاثُ مَـــشُورَةٍ لِـــسُلْطَانِهِمْ فـــي الحَـــقِّ ألا يُغَيَّـــرَا

وقال جرير[1]:

إذَا سَـــعَرَ الخليفـــةُ نَـــارَ حَـــرْبٍ رَأى الحجـــاجَ أثْقَبَهَـــا شـــهَابَا
تَـــرَى نَـــصْرَ الإمَـــامِ عَلَيْـــكَ حَقًّـــا إذا لَبَـــسُوا بِـــدِينِهُمُ ارْتِيَابَـــا

وقال الفرزدق[2]:

بِهِنْدِيَّـــةٍ بِـــيْضٍ إذَا مَـــا تَنَاوَلَـــتْ مَكَانَ الصَّدَى مِنْ رَأسِ عَاصٍ تَجَعْجَعَا[3]
وَقَـدْ كُنتَ ضَرَّاباً بِهَا يَا ابنَ يوسفٍ جَمَـاجِمَ مَـنْ عَـادَى الإمَـامَ وَشَيَّـعَا

فالحجاج يحارب لنصر الخليفة، فهو إما طالب بيعة له أو محارب لمن نكث هذه البيعة.

وقد تكون أهم ميزة للحجاج أنه كفى الخلافة الأموية أخطر منطقة في دولتهم (العراق) التي تعددت فيها الأحزاب السياسية المعارضة للخلافة الأموية، وكثرت فيها الثورات والفتن، فروضها الحجاج وألان قيادها للخلافة الأموية، لذا مزج الشعراء بين مدح الخليفة وذراعه الأيمن الحجاج رابطين ذلك بإخضاعه للعراق، قال الفرزدق[4]:

يَـا أيُّهَـا الرَّاكِـبُ المُزْجِـي مَطِيَّتَـهُ يُرِيـدُ مَجْمَـعَ حَاجَـاتِ الأرَاكِيـبِ
إذَا أتَيْـتَ أمِيـرَ المُـؤْمِنِينَ فَقُـلْ بِالنُّـصْحِ وَالعِلْـمِ قَـوْلاً غَيـرَ مَكْـذُوبِ
أمَّـا العِـرَاقُ فَقَـدْ أعْطَتْـكَ طَاعَتَهـا وَعَـادَ يَعْمُـرُ مِنْهَـا كُـلُّ تَخْرِيـبِ
أرْضٌ رَمَيْـتَ إليهـا وَهْـيَ فَاسِـدَةٌ بِـصَارِمٍ مِـنْ سُـيُوفِ اللهِ مَـشْبُوبِ

وقال جرير[5]:

---

(١) ديوان جرير ١/٢٤٤.
(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٩٧.
(٣) تجعجعاً: قطع.
(٤) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٤. ٢٥.
(٥) ديوان جرير ١/٤٠٢. ٤٠٣.

وَلَـــوْلا أَميـــرُ المـــؤمنينَ فَإنَّـــهُ ... إمَـــامٌ وَعَـــدْلٌ لِلْبَرِيَّـــةِ فَاضِـــلُ
وَبَسْطُ يَدِ الحجاجِ بالسَّيْفِ لم يَكُنْ ... سَـبِيلَ جِهَـادٍ وَاسْـتُبِيحَ الحَلائِـلُ
إذَا خَـافَ دَرْءاً مِـنْ عَـدُوٍّ رَمَـى بِـهِ ... شَـدِيدُ القُـوَى والنَّـزْعِ فِي القَـوْسِ نَابِـلُ
دَعُـوا الجُـبْنَ يـا أَهْـلَ العِـرَاقِ فَإنَّمَـا ... يُبَـاعُ وَيُـشْرَى سَـبْيُ مَـنْ لا يُقَاتِـلُ
لَقَـدْ جَـرَّدَ الحجـاجُ بِالحَـقِّ سَـيْفَهُ ... لَكُـمْ فَاسْـتَقِيمُوا لا يَمِـيلَنَّ مَائِـلُ

فالحجاج لم يضبط العراق إلا بالسيف والجهاد والدماء لذلك استحق من الخليفة الأموي كل تقدير.

وليس الحجاج بكاف الخليفة الأموي في أمر العراق فحسب، بل في كل أمر على الإطلاق، قال الأخطل[1]:

فَعَلَيْـكَ بِالحجـاجِ لا تَعْـدِلْ بِـهِ ... أَحَـداً إذا نَزَلَـتَ عليـكَ أُمُـورُ
وَلَقَـدْ عَلِمْـتَ وَأَنْـتَ أَعْلَمُنَـا بِـهِ ... أَنَّ ابْـنَ يوسُـفَ حَـازِمٌ مَنْـصُورُ

وقال جرير[2]:

أَرَى الطَّيرَ بِالحجاجِ تَجْرِي أَيَامِناً ... لَكُمْ يَا أَميرَ المؤمنين وَأَسْعُدا

وقال عمران بن عصام (ت نحو ٨٥هـ)[3]:

فَإِذَا طَبَخْتَ بِنَارِهِ أَنْضَجْتَهُ ... وَإِذَا طَبَخْتَ بِغَيرِهِ لم تُنْضِجِ

فعلى الإطلاق وفي كل أمر الحجاج عون وسعد للخليفة لا يقوم أحد مقامه.

وقد ربط العُديل بن الفرخ بين الخليفة والحجاج برباط قوي، فقال[4]:

خَلِيـلُ أَميـرِ المـؤمنينَ وَسَـيْفُهُ ... لِكُـلِّ إمَـامٍ صَـاحِبٌ وَخَلِيـلُ
بِـهِ نَـصَرَ اللّهُ الخَلِيفَـةَ مِـنْهُمَ ... وَثَبَّـتَ مُلْكـاً كَـادَ عَنْـهُ يَـزُولُ

---

(١) شعر الأخطل: ٤٠٤ـ٤٠٥.

(٢) ديوان جرير: ٨٥٢/٢.

(٣) أبو تمام : الوحشيات ص ٢٦٤.

(٤) أبو الفرج الأصفهانيح الأغاني ٣٦٢/٢٢.

فقد جعله في البيت الثاني صاحب فضل على الخلفاء الأمويين وليسوا هم بأصحاب الفضل عليه.

وزاد عبد الملك بن مروان من شدة هذا الرباط عندما سمي أحد بنيه بـ "الحجاج" وقال[1]:

سَمَّيْتُهُ الحجاجَ بِالحجاجِ النَّاصِحِ المُكَاشِفِ المُدَاجي

فهو ينص على أنه سماه الحجاج على الحجاج بن يوسف، ثم وصف شخصية الحجاج كما يراها في البيت الثاني.

ومع هذا الترابط الذي أظهره الشعر بين الحجاج والخليفة الأموي، لم يمنع هذا عتاباً جرى بين الخليفة عبد الملك بن مروان والحجاج، سجله الخليفة الأموي شعراً، إذ بعد حروب الحجاج مع ابن الأشعث بلغ الخليفة أن الحجاج أسرف في مكافأة مناصريه، وأسرف في عقوبة معادية، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يلومه ويهدده[2] قال[3]:

إذا أنتَ لم تَتْرُكْ أُمُوراً كَرِهْتُهَا وَتَأْبَى رِضَائي بالذي أَنَا طَالِبُهْ

فَلا تَأْمَنني وَالحَوَادِثُ جَمَّةٌ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِمَا أَنْتَ كَاسِبُهْ

وَلا تَمْنَعَنَّ النَّاسَ حَقّاً عَلِمْتَهُ وَلا تعْطِ مَالاً لَيس لِلنَّاسِ وَاجِبُهْ

إلى آخر الأبيات. فالخليفة مع محبته الشديدة للحجاج سارع في لومه على ما بلغه عنه، و كون الخليفة سجل عتبه هذا شعراً يدل على أن المعتوب عليه ليس أي عامل للخليفة، بل هو عامل له مكانته الخاصة في نفس الخليفة.

الإشادة بقبيلته:

ومع أن الحجاج كان يعيش في بيئة عربية صرفة للنسب فيها دور كبير، ومع أنه حكم العراق حين عادت العصبية القبلية جذعة، ومع تركيز هاجيه على نسبه في

---

(١) ابن أبي الحديد: أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله: شرح نهج البلاغة، تحقيق: حسن تميم (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٣م) ٥/٧٠٢.

(٢) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/١٢٠.

(٣) ابن أعثم: الفتوح ٧/١٢٠.

الهجاء، لا يركز مادحوه على هذا الجانب كثيراً، وقد تكون بقية أرجوزة أبي النجم العجلي (ت ١٣٠هـ) هي التي فيها مدح مباشر لقبيلته، ففيها[١]:

وَيْلُ أمّ دُورِ عِزَّةٍ وَمَجْدِ دُورِ ثقيفٍ بِسَوَاءِ نَجْدِ

أهلِ الحُصُونِ والخُيُولِ الجُرْدِ

وأكبر الظن أن في هذه الأرجوزة مدحاً كثيراً لقبيلة الحجاج وتنويهاً بنسبه، لأن الحجاج أعجب برجزه كما ورد في المصادر، وخيره في مكافأته تكريماً له[٢]. فهذا يدل على أن للرجز بقية تنصر الحجاج وتعلي من شأن قبيلته إلا أنها ضاعت.

وجرير عندما أراد مدح الحجاج رفعه إلى جده الأعلى "قيس" أبي القبيلة التي يميل إليها جرير كثيراً، ويتغنى بمفاخرها كأنه فرد منها، فقال[٣]:

أَلَمْ تَرَ قَيْساً لا يُرامُ لَهَا حِمىً وَيَقْضِي بِسُلْطَانٍ عَلَيكَ أَمِيرُهَا

مُلُوكٌ وَأَخْوَالُ الملوكِ وَفِيْهُمُ غُيُوثُ الحَيَا يُحْيِي البِلادَ مَطِيرُهَا

فقوله "وأخوال الملوك" يشير إلى المصاهرة المستمرة بين ثقيف وبني أمية القرشية مما يرفع من قيمة ثقيف.

وممن مدح الحجاج واقفاً بهذا المدح عند "معتب" عبد الله بن الزَبير الأسدي، فقال[٤]:

بِكَفَّيِ غُلامٍ من ثقيفٍ نَمَتْ بِهِ قُرَيشٌ وَذُو المجدِ التِّلِيدِ مُعتَّبُ

وكذلك عمران بن عصام[٥]:

وَبَعَثْتَ من وَلَدِ الأغَرِّ مُعَتَّبٌ صَقْراً يَلُوذُ حَمَامُهُ بِالعَوسَجِ

وممن مدح والد الحجاج مباشرة الفرزدق في رثائه للمحمدين فقال[٦]:

سَمِيَّي رَسُولِ اللهِ سَمَّاهُمَا بِهِ أبٌ لم يَكُنْ عِنْدَ المُصِيبَاتِ أَخْضَعَا

أبٌ كان للحجاج لم يُرَ مِثلُهُ أباً كانَ أَبْنَى لِلْمَعَالي وَأَنْفَعَا

---

(١) ديوان أبي النجم العجلي ص ٩٣

(٢) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٠/١٦٩.

(٣) ديوان جرير ٢/٨٨٠.

(٤) ديوان عبد الله بن الزَبير ص ٥٢.

(٥) أبو تمام: الوحشيات ص ٢٦٤.

(٦) شرح ديوان الفرزدق ١/٤٩٦.

فوالده كان صابراً بانياً للمعالي قليلا وجوده في الآباء.

ويرد في الشعر الذي قيل في مدح الحجاج قولهم "يا ابن الأكرمين" نحو قول نويفع بن لقيط[1]:

وَآليتُ لا آتِيكَ إلا مُسَالماً مَعِي مِنكَ يَا ابنَ الأكْرَمِينَ أمَاني

وقول العجاج[2]:

فَوَجَدُوا الحجاجَ يَأبَى الْهَضَّا لا فَانِياً وَلا حَدِيثاً غَضَّا

وَمِنْ صَرِيحِ الأكْرَمِينَ مَحْضَا[3]

وهذه كلمة تقال لا تقاس بالمدح بالآباء والأجداد والقبائل مما يوجد في شعر ذلك العصر وتلك البيئة بالذات التي عاش فيها الحجاج.

أسماؤه وألقابه:

وقد درج مادحو الحجاج عند مديحهم له على أن يشيروا إليه باسمه الأول "الحجاج"، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً مضى في هذا البحث نماذج كثيرة لها، وهذه الطريقة في تسمية الحجاج تطغى على ما سواها من الأساليب.

ثم يأتي بعدها بمراحل كثيرة تسمية الحجاج بابن يوسف كقول أعشى همدان[4]:

وَلَمَّا زَحَفْنَا لابنِ يوسفَ غُدْوَةً وَأبْرَقَ مِنَّا العَارِضَانِ وأرْعَدَا

وكقول العديل بن الفرخ[5]:

إِذَا مَا أتَتْ بَابَ ابنِ يوسفَ نَاقَتِي أتَتْ خَيْرَ مَنْزُولٍ بِهِ وَنَزِيلُ

وسُمي الحجاج قليلاً بابن أبي عقيل وهو جده، كقول الفرزدق[6]:

عليَّ رَأيْتَ يَا ابنَ أبِي عَقِيلٍ وَرَائي مِنْكَ أظْفَاراً وَنَابَا

وكقول جرير[7]:

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢/٦٤٤.

(٢) ديوان العجاج ص١٣١.

(٣) المحض: الصريح.

(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص١٠٢.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٢/٣٦٣.

(٦) شرح ديوان الفرزدق ١/٩٢.

(٧) ديوان جرير ١/٢٤٤.

صَبَرْتَ النَّفْسَ يا ابنَ أبي عَقِيلٍ مُحَافَظَةً فكيفَ تَرَى الثَّوَابَا

أما تكنيته بأبي محمد فقليل جداً جداً في الشعر، وله مثال واحد فيما اطلعت عليه من مصادر، وهو قول حميد الأرقط[1]:

قُلْتُ لِعَنْسَى وَهْيَ عَجْلَى تَعْتَدِي لا نَومَ حَتَّى تُحْسِرِي وتُلْهِدي[2]

أو تَرِدي حَـوْضَ أبي مُحَمَّـدِ

وهذا الأمر لا يتوافق مع ما تعارف عليه العرب من التكريم بالمناداة بالكنية خاصة أن محمد بن الحجاج ليس بالشخص الغفل أو الابن الخامل بل له دور سياسي وعسكري مع والده[3] حتى قال الفرزدق في رثائه[4]:

أَخاً كَانَ أَجْزَى أيسَرَ الأرضِ كُلِّهَا وَأَجْزَى ابْنُهُ أَمْرَ العِرَاقَينِ أَجْمَعَا

وقد كان خلفاء بني أمية يكنون الحجاج كثيراً عند مخاطبتهم له[5] تكريماً واحتراماً ومع ذلك لا يوجد له تكنيه في الشعر إلا في ذلك الرجز- فيما اطلعت عليه من مصادر-.

أما الألقاب التي استخدمها الشعراء في الشعر، فأكثرها (الأمير) كقول رجل من أصحاب قطري[6]:

تَاللهِ لا كِدْتُ الأَمِيرَ بِآلةٍ وَجَوَارِحِي وَسِلاحُهَا آلاتُهُ

وقول أحد جنود المهلب[7]:

أَلا قُلْ لِلأَمِيرِ جُزِيتَ خَيراً أَرِحْنَا مِنْ مُغِيرَةَ وَالرُّقَادِ

وهذا هو الوضع الطبيعي للحجاج فهو أمير وجدير بالمخاطبة بالإمارة خاصة من مادحيه.

---

(١) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: سمط اللآلي، تحقيق: عبد العزيز الميمني (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٤هـ-١٩٣٦م) ٢/٦٤٩.

(٢) تحسري: تتعبى حتى تعيى. تلهدي: يؤلمك سنامك من عض الحمل غاربك.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٢٧ وابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/١٧٩، ٥/٢٦٩، ٢٨٠.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٩٧.

(٥) انظرعلى سبيل المثال: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٨/٢٨٤. المسعودي: مروج الذهب ص ١٤٥.

(٦) الرقام البصري: أبو الحسن محمد بن محمد: العفو والاعتذار، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح (الرياض، مطابع جامعة الإمام مَحمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ ١٩٨١م) ٢/٥٦١.

(٧) المبرد: الكامل ٣/١١٤٨.

ولقب الحجاج كثيراً بأنه "سيف" فالفرزدق في أكثر من موضع جعل الحجاج نفسه سيفاً نحو قوله[1]:

تَعَلَّمْ أنَّمَا الحجاجُ سَيْفٌ تُجَذُّ بِهِ الجَمَاجِمَ وَالرِّقَابَا

وكقول حميد الأرقط[2]:

تَحْمِلُهُ مُعْتَجِراً بِبُرْدِهْ شَعْوَاءَ تَرْدِي بِنَسِيْجِ وَحْدِهْ[3]

كالسيفِ إن أبرزتَهُ من غمدِه

ووصف الحجاج بأنه "أسد" كقول عمران بن عصام[4]:

وَهْوَ الهِزَبْرُ إِذَا أَرَادَ فَرِيسَةً لَمْ يُثْنِهِ عَنْها صِيَاحَ مُهَجْهِجِ[5]

ولقب بـ "الصقر" كقول الفرزدق[6]:

كَأَنَّ قِطَامِيّاً عَلَى الرَّحْلِ طَاوِياً إِذَا غَمْرَةُ الظَّلْمَاءِ عَنْهُ تَجَلَّتْ

وهذه الألقاب "سيف، وأسد، وصقر" ربما كانت هي النمط التشبيهي الملائم للجو القتالي الذي أحاط بالحجاج لأن السيف عند العرب سيد الأسلحة والأسد ملك سباع البر والصقر سيد سباع الجو فكان من اللائق اختيار هذه الصور للممدوح.

كرم الحجاج وشجاعته:

ومن صفات الحجاج التي نوه بها الشعراء صفة الكرم، وحري بالشعراء أن ينوهوا بهذه الصفة التي تغريهم بشعر المديح. فالجحاف بن حكيم (ت نحو: ٩٠هـ) - وهو من هو - لجأ للحجاج ليحمل عنه دياته، فرحل إليه في دياره[7]، وقال[8]:

رَحَلْتُ إلى الحجاجِ أَطْلُبُ نَفْعَهُ عَلَى ثِقَةٍ بِاللهِ وَالرَّهْنُ قَدْ غَلَقْ

تَحَمَّلَ دِيَاتٍ بَيْنَ قَيْسٍ وَتَغْلِبٍ تَحَمَّلْتُهَا وَالقَلْبُ مِنْ ثُقْلِهَا فَرِقْ

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ١/٩٠.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٢/٣٣٨.

(٣) الاعتجار: لف العمامة دون التلحي. تردى: ترجم الأرض رجماً بين العدو والمشي الشديد.

(٤) أبو تمام: الوحشيات ص٢٦٤.

(٥) مهجهج: الهجهجة حكاية صوت الرجل إذا صاح بالأسد.

(٦) شرح ديوان الفرزدق ١/١٣٨.

(٧) انظر: شعر الأخطل صنعة السكري برواية ابن حبيب ص ٣٧ - ٣٨. والبلاذري: أنساب الأشراف ٥/٣٣٠، ٣٣٣.

(٨) شعر الأخطل ص ٣٨.

فَـأحْفَى سُـؤَالِي ثُـمَّ أقْبَـلَ ضَـاحِكاً عَـلَيَّ وَأعْطَـانِي الأُلُـوفَ مِـنَ الـوَرِقْ

فهذه الأبيات تثبت صفتين للحجاج، الأولى سرعة مده يد العون؛ إذ جاء إليه الجحاف "والرهن قل غلق" وحان موعد تسليمه، والثانية أنه يعطي برحابة صدر، فالحجاج "أقبل ضاحكاً" على الجحاف بن حكيم بعد أن أعطاه الألوف من الورق.

وقد أعمل إليه المطي أيضاً حميد الأرقط فقال[1]:

قُلْـتُ لِعَنْـسَى وَهْـيَ عَجْلَـى تَعْتَـدي لا نَـوْمَ حَتَّـى تَحْـسَرِي وَتَلهَـدِي
أو تَـرِدِي حَـوْضَ أبِـي محمـد لَـيْسَ الأمِيـرُ بِالـشَّحِيحِ المُلْحِـدِ

وَلا بِوَبْرٍ بِالحِجَـازِ مُقْـرِدِ

فعنسى ناقته التي حملته من الحجاز حيث عبد الله بن الزبير إلى حوض أبي محمد كما قال، وعمد إلى الموازنة بين الحجاج وعبد الله بن الزبير لتأكيد صفة الكرم في الحجاج.

وجرير لجا إليه عندما أعوزته الحاجة فقال[2]:

وَمَـا الحجـاجُ فَاحْتَـضِروا نَـدَاهُ بِجَـاذي المِـرْفَقَينِ وَلا نَكُـودِ
ألا نَـشْكُو إليـكَ زَمَـانَ مَحْـلٍ وَشُـرْبَ المـاءِ فِـي زَمَـنِ الجَلِيـدِ
وَمَعْتَبَـةَ العِيَـالِ وَهـم سِـغَاب علـى دَرِّ المُحَالِجَـةِ الرَّفُـودِ[3]
زَمَانـاً يَتْـرُكُ الفتيـاتِ سُـوداً وَقَـدْ كَـانَ المَحَـاجِرُ غَيـرَ سُـودِ

فالشاعر هنا يذكر المستضعفين من الأهل وهم العيال والفتيات لعلمه برحمة الحجاج الضعفاء.

والفرزدق يشيد بصفة الكرم في الحجاج، إذ قال[4]:

فَـإنِّي وَالَّـذي نَحَـرَتْ قُـرَيْشٌ لَـهُ بِمِنَـى وَأضْـمَرَتِ الرِّكَابَـا

---

(١) البكري: سمط اللآلي ٢/٦٤٩، وأبو علي القالي: الأمالي ٢/١٤.

(٢) ديوان جرير ٢/٧٢٨.

(٣) المحالجة والرفود: الإبل التي تدوم على محلبها لا ينقطع درها.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ١/٩١-٩٢.

إليـــهِ مُلَبِّـــدِينَ وَهُـــنَّ خُـــوصٌ ... لِيَـــسْتَلِمُوا الأوَاسِـــيَ وَالحِجَابَـــا
لَقَـــدْ أصْـبَحْتُ مِنْـكَ عَلَـيَّ فَـضْلٌ ... كفـضلِ الغيـثِ ينفـعُ مـن أصـابَا

ولطيف من الفرزدق تأكيد هذه الصفة في الحجاج بالقسم الذي ربطه بأطهر مكان عند المسلمين مكة المكرمة، وبركن من أركان الإسلام هو الحج.

ومن اللافت للنظر الأبيات التي تجمع بين مدح الحجاج بالكرم ومدحه بالقوة في الحرب كقول الفرزدق[1]:

إنَّ ابـــنَ يُوسُـــفَ محمـــودٌ خلائقُـــه ... ســيان معروفُـه فـي النـاسِ والمطـرُ
هـو الـشهابُ الـذي يُرمَـى العـدُّو بـه ... والمـشرَفيُّ الـذي تعـصى بـه مُـضَرُ
لا يرهـبُ المـوتَ إنَّ الـنفسَ باسـلةٌ ... والـرأيُ مجتمـعٌ والجـودُ منتـشرُ

فقد جعل الشاعر البيت الأول لمدح الحجاج بالكرم والثاني لمدحه بالشجاعة والثالث جمع فيه بين المعنيين، الشجاعة والكرم، وهاتان الصفتان هما ما يحتاج إليه أمير مدني وقائد حربي كالحجاج.

والأخطل قال[2]:

وَالقَـومُ زَأرُهُـمُ وَأعلَـى صَـوْتِهِمْ ... تَحْـتَ الـسُّيوفِ غَمَـاغِمٌ وَهَرِيـرُ
وَإذا اللِّقَـاحُ غَلَـتْ فَـإنَّ قُـدُورَه ... جُـوفٌ لَهُـنَّ بِمَـا ضَـمِنَّ هَـدِيرُ
طَلَـبَ الأزَارِقَ بِالكَتَائِـبِ إذْ هَـوَتْ ... بِـشَبِيبَ غَائِلَـةُ النُّفُـوسِ غَـدُورُ

فجعل وصفه بالكرم يأتي بين بيتين في وصف شجاعته في الحرب.

والفرزدق بعد أن أسهب في وصف حرب الحجاج مع ابن الأشعث وسخر ما شاء من أصحاب ابن الأشعث قال مباشرة[3]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٣٥.
(٢) شعر الأخطل ص٤٠٨.
(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٩٧.

تَـرَى أعْـيُنَ الهَلْكَـى إليـه كَأنَّهـا عُيـونُ الـصَّوارِ حُوَّمـاً بِالمَنَاهِـلِ[1]
يُـرَاقِبنَ فَيَّاضـاً كَـأنَّ جِفَانَـهُ جَـوَابِي زَرُودَ المُتْرَعَـاتِ العَـدَامِلِ[2]

فهو بكرمه يشبع جوع الفقراء بقدور ضخمة جداً.

فهولاء الشعراء أرادوا أن يجمعوا للحجاج أفضل ما في السلم وأفضل ما في الحرب، ففي السلم يحتاج الناس إلى الكرم، ووقت الحرب يحتاجون لقائد شجاع، فهو يقيهم المصائب في جميع الأوقات.

أما مدح الحجاج بالشجاعة وحدها، فجاء في شواهد كثيرة منها قول الفرزدق[3]:

رَأيْتُـكَ حِـينَ تَعْتَـرِكُ المَنَايـا إذَا المَرْعُـوبُ لِلْغَمَـرَاتِ هَابَـا
وَأذْلَقَـهُ النِّفَـاقُ وَكَـادَ مِنْـهُ وَجِيـبُ القَلْـبِ يَنْتَـزِعُ الحِجَابَـا[4]
تَهُـونُ عَلَيـكَ نَفْـسُكَ وَهْـوَ أدْنَـى لِنَفْـسِكَ عِنْـدَ خَالِقِهَـا ثَوَابَـا

فالشاعر عبر هنا بهوان النفس على صاحبها عن الشجاعة، وقال جرير[5]:

فَمَـا مُخْـدِرٌ وَرْدٌ بِخَفَّـانَ زَادَهُ إلـى القِـرْنِ زَجْـرُ الزَّاجِـرِينَ تَـوَرُّدَا[6]
بِأمْضَى مِنَ الحجاجِ في الحَرْبِ مُقْدِماً إذا بَعْـضُهُمْ هَـابَ الخِيَـاضَ فَعَـرَّدَا

وقال جرير أيضاً[7]:

تَشُدُّ فَلا تُكَذِّبَ يومَ زَحْفٍ إذا الغَمَرَاتُ زَعْزَعَتِ العُقَابا

فهو صادق في إقدامه في ذروة المعركة حتى إن الراية لا تثبت في يد حاملها لشدة

---

(١) الصوار: القطيع من البقر.

(٢) جوابي: جمع جابية وهي الحوض الضخم. زرود: تبتلع الطعام لضخامتها. العدامل: جمع عدمل وهي القديمة.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٩١/١.

(٤) أذلقه: أضعفه وأوهنه.

(٥) ديوان جرير: ٨٥٣/٢.

(٦) مخدر: أسد. ورد: لونه بين الكميت والأشقر. خفان: مأسدة . تورد: تقدم

(٧) ديوان جرير ٢٤٤/١.

الموقف. فالشجاعة الحقيقية تبرز في ميدان المعركة بين قصع الرماح وضرب السيوف لذلك حرص الشعراء السابقون على وصف الحجاج بالشجاعة داخل ميدان المعركة وليست أي معارك إنما معارك شديدة تنتزع القلوب ويفر منها الأبطال وتزعزع الراية من موقعها.

وما جاء في مدح الحجاج بالشجاعة أكثر من هذا بكثير، ففي وصف المعارك التي خاضها والأعداء الذين انتصر عليهم وغيره مما مر في الحديث عن صورة الحجاج الحربية دليل على شجاعته.

رصد الشعراء وقائع حياة الحجاج:

وبلغ من حرص الشعراء على مدح الحجاج إلى متابعة حركات الحجاج وتسجيل دقائقها، حتى نسجوا منها أبياتهم، فمن ذلك أن الحجاج أثناء قدومه من عند الخليفة الأموي سار من إيليا (القدس) إلى واسط في سبعة أيام فقط[1]، فانتهز الفرزدق الفرصة ليمدح همته وصدق عزيمته فقال[2]:

لَوْ أنَّ طَيراً كُلِّفَتْ مِثْلَ سَيرِهِ ... إلى وَاسِطٍ مِنْ إيْلِيَّاءَ لَكَلَّتِ

سَمَا بِالمَهَارَى مِنْ فِلسطينَ بَعْدَمَا ... دَنَا الفَيْءُ من شَمْسِ النَّهَارِ فَوَلَّتِ

فَمَا عَادَ ذَاكَ اليومُ حَتَّى أنَاخَهَا ... بِمَيْسانَ قَدْ حَلَّتْ عُرَاهَا وَمَلَّتِ

فالطير تكل من مثل سيره وهو لا يكل، والخيل تمل من مثل سيره وهو لا يمل.

وقال الراجز في مسيره ذاك[3]:

كَسَيْرِهِ مِنْ إيْلِيَّاءَ فَاعلَمِي ... سَبْعاً إلى وَاسِطَ في تَجَشُّمِ

وتابع الشعراء أيضاً أقواله وطبقوها في أشعارهم، فقد أكثر مادحو الحجاج من الشعراء من وصف أهل العراق الذين أجهدوا الحجاج بمعارضتهم بـ "المنافقين" ووصف أفعالهم بالنفاق، وقد تردد هذا في الشعر كثيراً وعلى سبيل المثال قال جرير[4]:

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٤٢.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ١/ ١٣٧. ١٣٨.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ١٢/ ٣٥٢.

(٤) ديوان جرير ١/ ١٣٨.

فَإذَا رَأيتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا سُبُلَ الضِّجَاجِ أقمتَ كُلَّ ضِجَاجِ[1]

وقال الفرزدق: [2]:

إِذَا حَارَبَ الحجاجُ أيَّ مُنَافِقٍ عَلاهُ بِسيفٍ كُلَّمَا هَزَّ يَقْطَعُ

والأمثلة على ذلك كثيرة[3]، وقد يكون مصدر هذه الصفة حرص الشعراء المادحين على موافقة الحجاج في رأيه في أهل العراق، إذ كثيراً ما سماهم المنافقين ففي أول أيام دخوله العراق سمع تكبيراً في السوق فخرج غاضباً وقال: "يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق وسيئ الأخلاق"، فهذا كلامه أول عهده بالعراق بل يقال ثالث أيام دخوله إياها[4]، ثم توالى نعته إياهم بالمنافقين فمن ذلك قوله: "لما تبوأت الأمور منازلها قالت الطاعة: أنزل الشام، قال الطاعون: وأنا معك، وقال النفاق: أنزل العراق، قالت النعمة: وأنا معك"[5]. وما زال هذا رأيه فيهم حتى وفاته ونهاية عهده بهم إذ كتب في وصيته: "وأوصي بتسعمائة درع حديد ستمائة منها لمنافقي أهل العراق يغزون بها، وثلاثمائة للترك"[6].

وقد شارك الشعر الحجاج في مصائبه التي مني بها وأعظمها فقده لأخيه وابنه في جمعة واحدة، فصور الفرزدق الحجاج من خلال قصيدته في الرثاء صبوراً متماسكاً، إذ افتتحها بقوله[7]:

لَئِنْ صَبَرَ الحجاجُ مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تَكُونُ لِمَرْزُوءٍ أَجَلَّ وَأَوْجَعَا
وَلَوْ أَنَّ يَوْمَي جُمْعَتَيْهِ تَتَابَعَا عَلَى جَبَلٍ أَمْسَى حُطَاماً مُصَرَّعا
وَمَا رَاعَ مَنْعِياً لَهُ مِنْ أَخٍ لَهُ وَلا ابنٍ مِنَ الأَقْوَامِ مِثْلاهُمَا مَعَا

---

(١) ضجاج: باطل

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥١٥.

(٣) انظر على سبيل المثال شرح ديوان الفرزدق ١/٢٩٧ ٣٠١.٣٠٠ ت ٢/٤٩٧. وديوان جرير ١/١٣٧. ١٣٨. ١٣٩. ٢/٧٢٧.

(٤) انظر: المبرد: الكامل ١/٢٣١.

(٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٢٢٢.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/١٣٩.

(٧) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٩٤. ٤٩٥.

وتصور القصيدة مدى تمسك الحجاج بدينه ومحبته للخليفة[1]:

وَلَمْ يَكُنِ الحجاجُ إلا عَلَى الَّذِي هُوَ الدِّينُ أَوْ فَقْدِ الإمَامِ لِيَجْزَعَا

والفرزدق يشاطر الحجاج البكاء عليهما[2]:

إِنِّي لَبَاكٍ عَلَى ابْنَي يوسفٍ جَزَعاً وَمِثْلُ فَقْدِهِمَا لِلدِّينِ يُبْكِينِي

مَا سَدَّ حَيٌّ وَلا مَيْتٌ مَسَدَّهُمَا إلا الخَلائِفُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّينِ

فهما رجلان صالحان، في حياتهما صلاح للدين، وفي فقدهما خسارة كبيرة.

رثاء الحجاج:

وبعد هذه الحياة الحافلة بالأعمال البطولية من الناحيتين العسكرية والمدنية، وبعد أن أمضى الحجاج عشرين عاماً كاملة والياً على أخطر مناطق الحكم الأموي (العراق)، فأحكم قيادها وأجاد سياستها، وبعد أن اشتهر بمحبة الخليفة الأموي له حتى جعله عبد الملك جلدة ما بين عينيه ثم أصبح جلدة وجه الوليد كله، مات الحجاج. ومن العجيب أن المصادر لا تذكر كثيراً من رثاء الحجاج، ولم يقم برثائه إلا الفرزدق بقصيدة ومقطوعة، وهذه القصيدة اليتيمة التي سمحت بها نفس الفرزدق علق عليها ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) بقوله: "وقال الفرزدق يرثي الحجاج يرضي بذلك الوليد بن عبد الملك [3]".

وفي هذه المرثية قال الفرزدق[4]:

فَلَيْتَ الأَكُفَّ الدَّافِنَاتِ ابنَ يوسفٍ تَقَطَّعْنَ إِذْ يحْثِينَ فَوقَ السَّقَايفِ

فقيل للفرزدق ما معناها، فقال: وددت والله أن أرجلهم تقطع مع أيديهم[5]، فهذا دليل على أن الفرزدق حزين فعلاً على الحجاج، وأنه لم يقل هذه القصيدة إرضاء للوليد بن عبد الملك فحسب بل إعجاباً ووفاء للحجاج خاصة أنه رثاه بمقطوعة من أربعة أبيات تفيض بالحزن على الحجاج[6]، وفي قصيدة الرثاء وضع الفرزدق الحجاج بعد الخلفاء

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٩٥.

(٢) المبرد: الكامل ٢/٤٤٩. التعازي والمراثي ص ٢٠٣، ولم أجد البيتين في ديوان الفرزدق.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/٢٨٨.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٣٠.

(٥) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/٢٨٨.

(٦) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/٣٦٥.

مباشرة فقال[1]:

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَانِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ عَلَى مِثْلِهِ إلا نُفُوسُ الخَلائفِ

وفي هذه القصيدة عدد الشاعر الطوائف التي ستفتقد الحجاج فعلاً،وهم أهل الثغور ممن يلي العدو، والأيتام، والرعاة البعيدين في المراعي والضعفاء من النساء والرجال الذين يعيشون في الأماكن القاصية، فالحجاج أمَّن روع هؤلاء وحفظ عليهم حياتهم وأموالهم كما حفظها لغيرهم إلا أن هؤلاء لا يستطيعون حماية أنفسهم بعد الحجاج أما غيرهم فيستطيع ذلك، وفي هذا تصوير لمدى الخسارة الفادحة التي منيت بها الأمة بموت الحجاج، ومن الطريف أن الشاعر ابتدأ الرثاء واختتمه ببكاء أهل الثغور عليه إذ قال مفتتحاً قصيدته[2]:

لِيَبْكِ عَلَى الحجاجِ مَنْ كَانَ بَاكِياً عَلَى الدِّينِ أَوْ شَارٍ عَلَى الثَّغْرِ وَاقِفِ

واختتم الرثاء بقوله[3]:

يَقُولُونَ لَمَّا أَنْ أَتَاهُمْ نَعِيُّهُ وَهُمْ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ جَيْشُ الرَّوَادِفِ[4]

شَقِينَا وَمَاتَتْ قُوَّةُ الجَيشِ وَالَّذي بِهِ تُرْبَطُ الأَحْشَاءُ عِنْدَ المَخَاوِفِ

ونعم الرجل ارتبط به المرابطون في سبيل الله إلى هذا الحد.

وكما غلب الرثاء الموضوعي على القصيدة غلبت الناحية العاطفية على مقطوعة الرثاء فجاءت مليئة بالدموع والبكاء قال[5]:

إبْكِ عَلَى الحجاجِ عَوْلَكَ مَا دَجَا لَيْلٌ بِظُلْمَتِهِ وَلاحَ نَهَارُ

إنَّ الرَّزِيَّةَ مِنْ ثَقِيفٍ هَالِكٍ تَرَكَ العُيُونَ وَنَوْمِهِنَّ غِرَارُ

وقد عبرت امرأة من أهل بيت الحجاج بعد وفاة الحجاج عما كان يعنيه لهم فقالت[6]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٢٩.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٢٩.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٣٢.

(٤) الروادف: هم الذين وراء الجيش يلون العدو.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٦٥.

(٦) الجاحظ: عمرو بن بحر: فصل ما بين العداوة والحسد (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م) ١/٣٧٢.

اليَومَ يَرْحمَنَا مَنْ كَانَ يَحْسِدُنَا وَاليَومَ نَتْبَعُ مَنْ كَانُوا لَنَا تَبَعَا

فالحجاج قد حمى أهل بيته حتى كانوا موضع حسد الآخرين، وكان الآخرون تابعين لهم، وبموته ينتظرهم ويل عظيم يرحمهم عليه الحاسدون ويتحولون من متبوعين إلى تابعين.

الصورة السلبية

أما الصورة السلبية للحجاج في الشعر فيبلغ عدد أبياتها نحو مائتين واثنين وثلاثين بيتاً، وأتت في معظمها في مقطعات شعرية، وأهم موضوع سيطر على شعر الصورة السلبيةهو:

الحروب والأيام:

وعيد أنصار ابن الأشعث للحجاج:

وأهم تلك الحروب، حروب الحجاج مع ابن الأشعث (ت ٨٣هـ) فكما شغلت مادحيه فقد أكثر منها هاجوه، فهم قبل بداية المعركة يهددون تهديد الواثق من النصر، قال الطفيل بن عامر بن واثلة (ت ٨٢هـ)[1]:

أَتَوكَ يَقُودُونَ المَنَايَا وَإِنَّمَا هَدَتْهَا بِأُولانَا إِليكَ ذُنُوبُ
وَلا خَيرَ فِي الدُّنيَا لِمَن لم يَكُنْ لَهُ مِنَ اللهِ فِي دَارِ القَرَارِ نَصِيبُ
ألا أَبْلِغ الحجاجَ أَنْ قَدْ أَظَلَّهُ عَذَابٌ بِأَيدِي المؤمِنينَ مُصِيبُ

فهو يهدد تهديه الواثق، فقد قدموا يقودون المنايا إلى أعدائهم ولم يقل الجيوش لثقته بنتيجة المعركة، هذه المنايا ستقتل أعداء لا خير في دنياهم لأنهم خسروا آخرتهم، ثم يهدد الحجاج مباشرة بأنه "قد أظله" العذاب المهين على أيدي المؤمنين ويقصد بهم أصحاب ابن الأشعث، ويلاحظ تعبير الشاعر ب(قد) مع الفعل الماضي لفعل لم يحدث بعد، لكن لثقة الشاعر بحدوثه عبر عنه بأسلوب التأكيد.

وكذلك أعشى همدان (ت ٨٣هـ) الذي أكثر من ذكر هذه الحرب لأنه أحد أتباع ابن الأشعث، والشاعر الناطق بما يدور فيها، فقد قال واصفاً حربهم للحجاج[2]:

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٢-١٣.

(٢) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ٧٣.

مَـــنْ مُبْلِـــغُ الحجـــاجَ أنِّـــي قَـــدْ نَـــدَبْتُ إليـــهِ حَرْبَـــا
حَرْبـــاً مُـــذَكِّرةً عَـــوَا نـــاً تَتْـــرُكُ الـــشُّبَّانَ شُـــهْبَا

فهو يصفها قبل أن تبدأ بأنها حرب شديدة تغير سحنة الشباب الأقوياء فكيف بمن دونهم!!

وقد تفنن الشعراء المعادون للحجاج في السخرية منه في هذه الحروب وتعييره، فعير بالفرار من المعركة ولولا الفرار ما نجا منهم، فقال الحارث بن خالد المخزومي (ت ٨٠هـ)[١]:

وَكَـادَ غَـدَاةَ الـدِّيرِ يُنفِـذُ حِـضْنَهُ غُـلامٌ بِطَعْـنِ القِـرْنِ جِـدٌّ طَبِيـبِ
وَأَنْـسَوهُ وَصْـفَ الـدِّيرِ لَمَّـا رَآهُـمُ وَحَـسَّنَ خَـوفَ المَـوتِ كُـلُّ مُعِيـبِ

وقد توقع أصحاب ابن الأشعث هذا المصير للحجاج فقال أبو جلدة اليشكري (ت نحو ٨٣هـ)[٢]:

نحـنُ جَلَبْنَـا الخَيـلَ مِـنْ زَرَنْجَـا مَالَـكَ يَـا حجـاجُ مِنَّـا مَنْجَـى
لَتُـبْعَجَنَّ بِالـسُّيوفِ بَعْجَـا أَوْلَتَفِـرَنَّ فَـذَاكَ أَحْجَـى

فالشاعر واثق أنه ليس أمام الحجاج سوى خيارين إما القتل أو الفرار والثاني هو المتوقع منه.

بل لحقت السخرية محمد بن الحجاج نفسه في هذه الحرب، فقال الطفيل بن عامر بن واثلة[٣]:

مَتَى نَهْبِطَ المِصْرَينِ يَهْرُبْ محمدٌ وَلَيْسَ بِمُنْجِي ابنِ اللعِينِ هُرُوبُ

فمحمد لن يصمد ليقاتل بل سليجأ للهروب، ولكن الهروب لن ينفعه لأنهم سيلاحقونه حتى يقتلوه، وجعله "ابن اللعين" لشدة نقمته عليه وعلى والده.

---

(١) شعر الحارث بن خالد ص ٤٧.
(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١١/٢٩٣.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/١٣.

وعمد بعض الشعراء إلى السخرية من الحجاج وقواده وجنده، مضاعفين حدة السخرية بربطها بمديح قوادهم أعداء الحجاج، فقال أعشى همدان[1]:

نُبْئِتُ حجاجَ بنَ يو ... سفَ خَرَّ مِنْ زَلَقٍ فَتَبَّا
فَانْهَضْ .فُدِيتَ .لَعَلَّهُ ... يَجْلُو بِكَ الرَّحْمنُ كَرْبَا

فسيجلو الرحمن كربة الناس من الحجاج عن طريق ابن الأشعث، وقال الضحاك اليربوعي[2]:

إِنْ يَهْلِكِ الحجاجُ فَالمِصْرُ مِصْرُنَا ... وَإِلا فَمَثْوَانَا بِدِيرِ الجَمَاجِمِ
وَإِنْ تُخْرِجوا سُفْيانَ نُخْرِجْ إِلَيْكُمُ ... أَبَا حَازِمٍ فِي الخَيْلِ شُعْثِ المَقَادِمِ
وَإِنْ تَبْرُزُوا لِلْحَرْبِ تَبْرُزْ سَرَاتَنَا ... مَصَالِيتَ شُوساً بِالسُّيوفِ الصَّوَارِمِ

فهم لن يتركوا المكان إلا بامتلاك المصر أي العراق أو يموتون على أرض دير الجماجم آخر المعارك الفاصلة في هذه الحرب، ثم يتحدى فرسان الحجاج بفرسانهم وجنده بجندهم.

وقد عمد أعشى همدان إلى الفخر بجيش ابن الأشعث، رابطاً هذا الفخر بهجاء الحجاج فقال[3]:

سَارَ بِجَمْعٍ كَالدَّبَى مِنْ قَحْطَانْ ... وَمِنْ مَعَدٍّ قَدْ أَتَى تبنُ عَدْنَانْ
بِجَحْفَلٍ جَمٍّ شَدِيدِ الإِرْنَانْ ... فَقُلْ لحجاجٍ وَلِيِّ الشَّيطَانْ[4]
يَثْبُتْ لِجَمْعٍ مَذْحِجٍ وَهَمْدَانْ ... وَالحيِّ مِنْ بَكْرٍ وَقَيْسِ عَيْلَانْ

فَإِنَّهُمْ سَاقُوهُ كَأْسَ الذِّيفَانْ

فهو يفخر بضخامة ذلك الجيش، وأنه يضم عناصر من كل القبائل العربية الشمالية والجنوبية، ولا ينسى في أثناء ذلك التذكير بأن هذا الجيش ما جاء إلا لولي الشيطان

---

(١) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ٧٤.

(٢) البكري: معجم ما استعجم ٢/ ٥٧٤ "دير الجماجم"

(٣) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٦٤.

(٤) الإرنان: الضوضاء.

(الحجاج)، وأنهم ساقو الحجاج السم الناقع.

وبعد انتهاء الحرب مع ابن الأشعث سكتت الألسن الهاجية عن ذكر هذه الحرب؛ فقد انتصر الحجاج نصراً ساحقاً وطفق يبالغ في العقاب وفي الثواب، إلا أنه بعد موته وموت الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ) عاد ذكر هذه الحرب في شعر الفرزدق الذي برع في الإشادة بانتصارات الحجاج على ابن الأشعث، عاد ليجد من خلالها سبيلا إلى التقرب لسليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) الذي يحمل للحجاج كل كراهية وعداء، فقال مستنكراً فعل الحجاج بالفلول المستسلمة من جيوش ابن الأشعث[١]:

وَإِذْ أَنْتُمُ مَنْ لم يَقُلْ أَنَا كَافِرٌ ... تَرَدَّى نهاراً عَثْرةً لا يُقَالُهَا

وَفَارَقَ أُمَّ الرَّأسِ مِنْهُ بِضَرْبَةٍ ... سَرِيعٍ لِبَيْنِ المِنْكَبَينِ زِيَالُهَا

وَإِنْ كانَ قَدْ صَلَّى ثَمَانينَ حِجَّةً ... وَصَامَ وَأَهْدَى البُدنَ بِيضاً خِلالُهَا

فالفلول التي آذتها الهزيمة وآلمها الخزي، إذا جاءت تبايع الحجاج مرغمه لا يبايعها الحجاج مباشرة بل يشترط عليهم أن يقروا على أنفسهم بالكفر، فمن أقر بايعه ومن لم يقر قتله مباشرة، وحتى كبار السن ممن تعدوا الثمانين ولم يرضوا على أنفسهم بالكفر بعد هذا العمر لم يرحمهم الحجاج وقتلهم، وقد يكون الفرزدق يعني بهذا البيت "كميل بن زياد النخعي" (ت ٨٣هـ) ورجلاً من خثعم اللذين قتلهما الحجاج وهما فوق الثمانين بعد دير الجماجم، لأنهما لم يقرا على نفسيها بالكفر[٢]. فالحجاج في نظر الشاعر معتد جبار في تكفيره للناس قاس عديم الرحمة في قتله كبار السن.

وعاد الفرزدق للحاضر في هجائه للحجاج، فالفلول الهاربة من الحجاج خارج حدود الدولة الأموية ظلوا طريدين خائفين بعد انتهاء تلك الحرب حتى قدوم سليمان بن عبد الملك الذي أمَّنهم بعد توليه الخلافة، فرجعوا إلى بلادهم، فانتهزها الفرزدق فرصة لمدح سليمان بن عبد الملك بهذا الفعل الكريم وهجاء الحجاج، فقال[٣]:

أَلِكْني إلى مَنْ كانَ بِالصِّينِ إِذْ رَمَتْ ... بِهِ الهندُ أَلْوَاحٌ عَلَيهَا جِلالُهَا

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٢٢.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٢٥.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٢٣.

هَلُـمَّ إلـى الإسْـلامِ والعَـدْلِ عِنْـدَنَا فَقَـدْ مَـاتَ عَـنْ أَرْضِ العِـرَاقِ خَبَالُهـا

فالحجاج هو خبال العراق أي فساده.

وهكذا صور شعر الخصوم في هذه الحرب الحجاج بالإنسان الجبان الضعيف، الذي لا يخجل من الفرار لا هو ولا ابنه، وصوره بالإنسان عديم الرحمة، قاسي العقوبة، وكان شعر هؤلاء الشعراء يفيض بالاعتداد بالنفس والثقة من النصر، كأنهم ضمنوا النتائج قبل بداية المعركة.

هزائم الحجاج أمام الخوارج:

أما حربه مع الخوارج فقد أكثر شعراء الصور السلبية من ذكرها، وكان للخوارج الشبيبية صولة وجولة داخل العراق، فأكثروا من السخرية من الحجاج وجنده قال عبد الواحد الأزدي يوم سوق حكمة[1]:

يَـاليتَنِي فـي الخَيـلِ وَهْـيَ تَدُوسُـهم فـي السُّوقِ يَـومَ الظَّفـرِ بالحجـاج
بِـأخي ثَمُـودَ وَقُـرْبَ مَـا أَخْطَأَنَـهُ وَلَقَـدْ بَلَغْـنَ العُـذْرَ فـي الإدْلاج
أَصْـبَحْنَ بِالأَنْبَـارِ يَـومَ أَتَينَـهُ مِثْـلُ السَّعَالَى تَحْـتَ لَيـلٍ دَاج
فَـبَطَحْنَ مَيْمُـونَ العَـذَّابِ لِوَجْهِـهِ وَتَرَكْنَـهُ مُتَقَطِّـعَ الأَوْدَاج
ولقـد تخطـأت المنايـا حوشـباً فنجـا إلـى أجـلٍ وليس بنـاج

وقال حبيب بن خدرة الهلالي مولاهم، يذكر ذلك اليوم أيضا[2]:

أَلْـوتْ بِعَتَّـابٍ شَـوَارِدُ خَيْلِـنا ثُـمَّ انثَنَـتْ لِكَتَائِـبِ الحجـاج
وَلَـعَمْرُ أُمِّ العَبْـدِ لَـوْ أَدْرِكْنَـهُ لَـسَقَيْنَهُ صِـرْفاً بِغَيـرِ مِـزَاج

فكلاهما يجمع على أن الحظ ولا شيء غيره كان في صف الحجاج إذ نجا من الخوارج مع ما توافر لهم من خيول سريعة وسلاح نافذ، وهما يجمعان أيضاً على كراهية عميقة للحجاج عبرا عنها بمثل "أخي ثمود"، و"ابن أم العبد".

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٧/ ٩٥.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٨/ ٣٦٧.

وكذلك عيره الحارث بن خالد المخزومي بإفلاته مهزوماً من جيش شبيب (ت ٧٧هـ)، فقال[١]:

فَإنْ تَنْجُ مِنْهَا يَا ٱبَانُ مُسَلَّماً فَقَدْ أفْلَتَ الحجاجَ خَيْلُ شَبِيبِ

فهؤلاء الشعراء متفقون على أن الحجاج كاد يقع في أيدي الخوارج إلا أنه نجا بحياته منهزماً.

وكما سخروا في تلك الأبيات من الحجاج سخروا من قادة جيشه وجنده، فحبيب ابن خدرة افتخر بقتلهم عتاب بن ورقاء الرياحي (ت ٧٧هـ)، ولا عجب في افتخاره إذ صمد لقتالهم وقد فر جنده من حوله إلا قلة قليلة، ولم يتمكن من قتله إلا شبيب بنفسه[٢]، وبعد قتله تفرغت كتائب الخوارج لمطاردة الفارين من كتائب الحجاج. أما الافتخار بقتل وملاحقة من هم دون القادة فقد صوره عبد الواحد الأزدي في الشعر السابق، فافتخر بقتلهم ميمون (ت ٧٦هـ) الذي يسمى العذّاب، وهو مولى حوشب الوارد في البيت الثالث، أما حوشب فهو حوشب ابن يزيد صاحب شرط الحجاج[٣]، وقد نجا من الموت في ذلك اليوم، لذلك لم ينسَ الشاعر أن يتوعده بأن نجاته إلى أجل لأنهم - أي الخوارج - سيهاجمونه مرة أخرى ويقضون عليه.

ولأن الخوارج أكثر ما نقموا على الحجاج توليه قتالهم وإصراره على ذلك القتال حتى النصر، فقد حاولوا أن يسخروا من قوته فوصفوه بالجبن وعيروه بالفرار، واتهموه بالاختباء خلف الأسوار والأبواب، فمن ذلك أبيات عمران بن حطان (ت ٨٤هـ) المشهورة[٤]:

أسَدٌ عليَّ وَفي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ رَبْدَاءُ تَفْزَعُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافرِ
هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غَزَالَةَ في الوَغَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ في جَنَاحَي طَائرِ
صَدَعَتْ غَزَالَةُ قَلبَهُ بِفَوَارِسٍ تَرَكَتْ مَنَاظِرَهَ كَأمْسِ الدّابرِ

---

(١) شعر الحارث بن خالد المخزومي ص ٤٦.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢٤٧/٧.

(٣) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص٢٧٤.

(٤) ابن طيفور: أحمد بن أبي طاهر: بلاغات النساء، تحقيق: محمد طاهر الزين (الكويت، مكتبة السندس، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) ص ١٧٤. والبيت الرابع في ابن أعثم: الفتوح ٦٦/٧.

أَلْـقِ الـسِّلاحَ وَخُـذْ وِشَـاحَ مُعَـصْفرٍ واعمَـدْ بِمَنْزِلَـةِ الجَبَـانِ الكَافِـرِ

فهو في الجبن كالنعامة، لذلك تحداه أن يقف محارباً -لا لرجل- ولكن لامرأة هي غزالة الخارجية (ت ٧٧هـ) التي أخافته بفرسانها، ثم أنهى مقطوعته بأن من مثله حقه أن يلقي السلاح، ويلبس ملابس النساء، ويرضى بمنزلة الجبان الكافر.

وكما اختبأ الحجاج من غزالة ورفض أن يبرز لمقاتلتها اختبأ عن غيرها من المقاتلين مثل شبيب الخصم القوي للحجاج، فقال رجل من الخوارج يعيره[١]:

لَعَمْرِي لَقَدْ نَادَى شَبِيبٌ وَصَحْبُهُ عَلَى البَّابِ لَوْ أَنَّ الأميرَ يُجِيبُ

ولقبه بالأمير هنا سخرية لا احتراماً، فكيف يعقل أن هناك أميراً يختبئ خلف الأبواب والجيش المعادي يناديه للمعركة وهو يرفض مواجهتهم !!. وعيره بالاختباء خلف الأسوار حبيب بن خدرة، فقال[٢]:

حَتَّى تَرَكْنَ أَخَا الضَّلالِ مُسَهَّداً مُتَمَنِّعاً بِحَوَائِطٍ وَرِتَاجِ

فهو محتم متحصن ومع ذلك يحمل الهم ولا يشعر بالأمان لشدة جبنه.

استياء جيش المهلب من سياسة الحجاج:

وتولي الحجاج حرب الخوارج أثمر حركة شعرية طريفة ليس فقط عند الطرف المعادي للحجاج (أي الخوارج)، بل أدى توليه هذه الحرب إلى حركة شعرية خصبة عند الطرف المقابل للخوارج، وهم جند الحجاج أنفسهم ممن يمارسون القتال تحت قيادة المهلب بن أبي صفرة (ت ٨٢هـ)فالحجاج حريص على إنهاء الحرب سريعاً، والمهلب الذي يقود الحرب يرى غير ذلك[٣]، مما أغضب الحجاج من المهلب، وأغضب جند المهلب من الحجاج، وهم يشعرون أن المهلب كالأب الرؤوم لهم، لذلك مضوا يثمنون خبرة الحجاج في القتال ساخرين من رسله الذين يبعثهم إلى المهلب مثل قول الصلتان العبدي (ت نحو ٨٠هـ)[٤]:

---

(١) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٦٥.

(٢) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٣٦٠.

(٣) انظر: المبرد: الكامل ٣/ ١١٣٣.

(٤) المبرد: الكامل ٣/ ١١٣٦.

ألا يَـا اصْـبِحَاني قَبْـلَ عَـوْقِ العَوَائـقِ ... وَقَبْـلَ اخْتِـرَاطِ القَـومِ مِثْـلَ العَقَـائقِ
غَـدَاةَ حَبِيـبٌ فـي الحَدِيـدِ يَقُودُنَـا ... نَخُـوضُ المَنَايَـا فـي ظِـلالِ الخَوَافِـقِ
فَمَـنْ مُبْلِـغُ الحجـاجِ أنَّ أمِينَـهُ ... زيـاداً أطَاحَتْـهُ رِمَـاحُ الأزَارِقِ

وحبيب (ت ١٠٢هـ) هنا هـو ابن المهلب بن أبي صفـرة، وزياد هـو ابن عبد الرحمن الذي بعثه الحجاج إلى المهلب يستعجله على قتال الأزارقة، فضمه المهلب إلى جند ابنه حبيب ليرى قتالهم ويخبر الحجاج حقيقته، فلم يصمد أمام قوة الخوارج فأطاحته رماحهم حتى كادوا يقتلونه[1].

أما أبو خالد اليشكري فمضى لأكبر من ذلك حيث قال[2]:

ألا قُـلْ لِمَـنْ ظَـنَّ المُهَلَّـبَ خَائنـاً ... هَلُـمَّ فَكُـنْ فِينَـا مَكَـانَ المُهَلَّـبِ
فَـإنَّ رِجَـالاً غُيَّبُـوا عَـن طِعَانِنَـا ... وَعَـنْ ضَرْبِ هَامَاتِ الليُّوثِ المُجَرَّبِ
قَـدْ أعْطَوكَ مِـنْ أمْـرِ المُهَلَّبِ عُنْوَةً ... وَقَـدْ ذَهَبَـتْ أبْنَـاؤُهُ كُـلَّ مَـذْهَبِ

فهو يتهم الحجاج بأنه يظن أن المهلب خائن، ثم يتحداه أن يحل محل المهلب في قتال الأزارقة كأنما يعلن للملأ عجزه عن ذلك، ثم يواصل تحدي الحجاج بأعدائه فقال[3]:

فَلَـوْ ذُقْـتَ كَأْسـاً مِـنْ عُيَيْنَـةَ مُـرَّةً ... وَعَمْـرُو القَنَـا أوْ عَبْـدِ رَبٍّ وَشَـوْذَبِ
وَمِـنْ قَطَـرِيٍّ أوْ عَطِيَّـةَ وَابنِـهِ ... وَمِـنْ صَـالحٍ أوْ مِـنْ زُبَيـرٍ وَمِـصْعَبِ
لأيْقَنْـتَ أنَّـا فـي حُلُـوقِ عَـدُوِّنَا ... شَجًى نَاشِبٍ سَلْ يَا ابنَ يوسفَ تَعْجَبِ

وهـؤلاء المـذكورون فـي البيتين الأول والثاني مـن رؤوس الخـوارج وفرسـانهم كأنما يقول هم أكفاؤنا في القتال وأن الحجاج خارج هذه الموازنة، ثم ختم أبياته بإظهار ثقته

---

(١) انظر: المبرد: الكامل ٣/ ١١٣٦.

(٢) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٦.

(٣) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٦، ١٧.

بنفسه وبمن معه حين قال[1]:

فَأَرْسِلْ إِلَيْنَا مَنْ يُعَاينَ فِعْلَنَا يَقُلْ حِينَ يَخْبِرْنَا فِدى لَكُمُ أَبي

فهو يريد أن يقول أنك مادمت بعيداً عن ميدان المعركة فلا قدرةَ لك على تثمين الوضع، وهذا مثل قول رجل من بني عامر يسخر من أوامر الحجاج وهو بعيد عن ميدان المعركة[2]:

لَيْسَتْ مُقَارَعَةُ الكُمَاةِ لَدَى الوَغَى شُرْبِ المُدَامَةِ في إِنَاءِ زُجَاجِ

أما كعب الاشقري (ت نحو ٨٠هـ) الذي أمضى حياته في ظلال آل المهلب ينعم بكرمهم ويتفأ بحسن أخلاقهم، فقد جعل نبرة الغضب على الحجاج أعلى، إذ قال مدافعاً عن آل المهلب[3]:

إِنَّ ابنَ يوسفَ غَرَّهُ مِنْ غَزْوِكُمْ خَفْضُ المَقَامِ بِجَانِبِ الأَمْصَارِ

لَوْ شَاهَدَ الصَّفَّين حِين تَلاقَيا ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحِيبَةُ الأَقْطَارِ

فَرَأى مُعَاوَدَةَ الدِّبَاغِ غَنِيمَةً أَزْمَانَ كَانَ مُحَالِفَ الإِقْتَارِ

فَدَعِ الحُرُوبَ لِشِيبِهَا وَشَبَابِهَا وَعَلَيكَ كُلُّ خَرِيدَةٍ مِعْطَارِ

فهو غضباً لآل المهلب يتحدى الحجاج الذي عرف ببطشه، ويجعل همه الحياة الناعمة في الأمصار المعمورة والقيام بأمر النساء الجميلات، أما الحرب فيتولاها أهلها آل المهلب، وقد أغضبت هذه الأبيات الحجاج أيما غضب[4].

وحتى إن المغيرة بن حبناء (ت ٩١هـ) حمل تساؤل جنود المهلب كلهم في مفتتح إحدى قصائده، فقال[5]:

لَيْتَ شِعْرِي وَلِلأُمُورِ قَرَارٌ هَلْ بَلَغْنَا مَدَى رِضَى الحجاج

فهذه آراء جنود المهلب في حربهم مع الخوارج، أنهم يحاربون فرساناً عركوا

---

(١) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٧.

(٢) المبرد: الكامل ٣/ ١١٥٩

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٤/ ٢٧٤.

(٤) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٤/ ٣٧٤.

(٥) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٢١.

الحروب وعركتهم، ولهم قائد أرأف بهم من الأب وهم أطوع له من الأبناء البررة، فلما تدخل الحجاج تدخلاً فيه غض من مكانة المهلب، هب جنده يعبرون عن حقيقة هذه الحرب ويضعون المهلب في مكانه الصحيح من هذه الانتصارات، ويعرجون في أثناء ذلك على لوم الحجاج، واصفين خبرته في القتال بأنها أقل وأضعف من أن يتدخل في حرب ضروس مثل هذه.

وأثمرت هذه الحرب شعراً معادياً للحجاج عند طرف ثالث وهم الجنود الرافضون للانضمام للحرب لما عرفوه من بأس الخوارج واستبسالهم في حروبهم، فارتفعت أصوات الرافضين عاتبين على الحجاج إصراره على إرسالهم للموت، فسوار بن المضرب قال متحدياً[1]:

أقَاتِلِيَ الحجاجُ إنْ لَمْ أُزُرْ لَهُ ... دَرَابِ وَأتْرُكْ عِنْدَ هِنْدَ فُؤَادِيا

فإنْ كَانَ لا يُرْضِيكَ حَتَّى تَرُدُّنِي ... إلى قَطَرِيٍّ مَا إخَالُكَ رَاضَيا

فإنه يعلن عن رفضه التام للذهاب إلى قطري وحربه هو وأصحابه ولو كان ثمن ذهابه رضا الحجاج هذا الأمير المهاب.

وقال ابن جابر الرزامي في هذا الموضوع[2]:

أيُوعِدُني الحجاجُ إنْ لم أقُمْ لَهُ ... بِسِيرافَ حَولاً في قِتَالِ الأزَارِقِ

وَإنْ لَمْ أُرِدْ أرْزَاقَهُ وَعَطَاءَهُ ... وَكُنتُ امْرأً سبّاً بِأهْلِ الخَرَانِقِ

فهو يرفض الانقطاع عن أهله في الخرنق والتجمير سنة لقتال الأزارقة.

ولم يسلم الحجاج حتى ممن شملهم بعفوه، إذ اندفعوا يسخرون منه، فأحد الخوارج لما سأله الحجاج عن دينه قال: دين يوسف بن الحكم، يعني والد الحجاج، فقال الحجاج: لقد توليته! يحب الله ورسوله، فخلى سبيله، فقال الخارجي حين خرج[3]:

أرَى الحجاجَ يَقْتُلُ كُلَّ بَرٍّ ... وَيَتْرُكُ مَنْ عَلَى دِيْنِ الحِمَارِ

---

(١) المبرد: الكامل ٢/٤٤٥.

(٢) البكري: معجم ما استجم ٢/٤٩٤ مادة (الخرنق).

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ١٢/٣٧٥.

فَيَـا ابـنَ القِلْعَـمِ المَجْلُـوبِ حَيْفـاً دَعِ الحجـــاجَ وَانْـــجُ إلـــى دَبَـــارِ

فجعل قتله للخوارج قتلاً للبررة، ولقب والد الحجاج بالحمار، ولم يتوجه بكلمة شكر للحجاج على إطلاق سراحه.

وكذلك فعل قطبة بن زياد الذي يرى أنه احتال على الحجاج حتى أطلقه فقال[1]:

نَجَـوتُ مِـنَ الحجـاجِ أنّـي مُجَـرّبٌ بَـــصِيرٌ بِأَحْنَـــاءِ الأُمُـــورِ الأَوَائِـــلِ
وَقَـدْ قَـالَ نَـاسٌ مِـنْ تَمِـيمٍ وَغَيْـرِهِمْ نَجَـا ابـنُ زِيَـادٍ مِـنْ يَـدَيْ غَيْـرِ غَافِـلِ
فَقُلْـتُ بِحَمْـدِ اللهِ وَالـصَّبرِ أَفْلَتَـتْ حَشَاشَةُ نَفْسِي مِنْ شَتِيمٍ صُلاصِلِ[2]

فأعاد لتجاربه ولله وصبره أسباب إطلاق سراحه، ولم ينل الحجاج إلا الهجاء المر من الشاعر.

وهكذا أثمرت حرب الخوارج على قوتها حركة شعرية قوية أيضاً عند أطراف عدة اختلفت مذاهبهم وأدوارهم في هذه الحرب واشتركوا في صب لائمتهم وهجائهم على الحجاج.

رمي الكعبة:

أما حرب الحجاج مع عبد الله بن الزبير، فقد رآها المعادون للحجاج حرباً ضد الإسلام، قال الأقيبل القيني (ت نحو ٨٥هـ)[3]:

وَلَـمْ أَرَ جَيْـشاً غُـرَّ بِـالحَجِّ قَبْلَنَـا وَلَـمْ أَرَ جَيْـشاً مِثْلَنَـا كُلُّهُـمْ خُـرْسُ
دَلَفْنَـا لِبَيْـتِ اللهِ نَرْمِـي سُـتُورَهُ بِأَحْجَارِنَـا نَهْـبَ الوَلائِـدِ لِلعُـرْسِ
دَلَفْنَـا لَهُـمْ يَـومَ الثُّلاثَـاءِ مِـنْ مِنًـى بِجَيْشٍ كَصَدْرِ الفِيْلِ لَيْسَ لَهُ رَأْسُ

فالشاعر هنا يتهم الحجاج بالكذب في إخراج الجيوش إذ أوهمهم أنه سيحج بهم، ثم فوجئوا بأنهم سيضربون أطهر بقعة على وجه الأرض وأحبها إلى المسلم (بيت الله)، بل سيركزون على الكعبة (ستوره). وكأنما الشاعر تملكه شعور من الأسى والندم مما

---

(١) الرقام البصري: العفو والاعتذار ١/ ٢١٠، ٢١١.

(٢) صلاصل: الذي يرفع الصوت في الإيعاد والتهديد

(٣) الجاحظ: الحيوان ٧/ ١٠٢.

جعله يتذكر اليوم الذي هاجموا فيه مكة وهو "يوم الثلاثاء"، وقليلاً ما تذكر الأيام في الشعر العربي، أما قولة "كلهم خرس" فتوحي بهيبة الحجاج التي منعتهم من الكلام والاعتراف، فكلهم خضع ساكتاً إلا الشاعر الذي عبر عن رفضه بهذه القصيدة.

وهذه القصيدة قد تكون الوحيدة - فيما اطلعت عليه من مصادر - التي توجهت باللوم للحجاج على ما فعله في مكة، ومن الغريب أن في هذه الحرب مجالا واسعاً للهجاء أكثر من حرب الخوارج ممن خرجوا من الملة إلا أنه على ما يبدو أن الظروف السياسية التي كانت في صالح الحجاج منعت الألسن من الحديث عن هذه الحرب سلباً.

الطعن في نسب الحجاج:

وقد يكون الأمر الثاني الذي ركز عليه الشعراء بعد الحرب في هجاء الحجاج هو عنصر الأصل والنشأة، وليس هذا بمستغرب في بيئة عربية صرفة كان للنسب فيها أهمية كبيرة، خاصة في العراق الذي عادت فيه العصبية القبلية جذعة كما كانت في الجاهلية، والحجاج من ناحية الأصل معروف أنه من قبيلة ثقيف، وقبيلة ثقيف قبيلة عربية، فهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس عيلان[1]، مع ذلك فالشعراء وجدوا منفذاً يؤذون به الحجاج فقد ركزوا على رواية تقول بأن ثقيف من ولد أبي رغال، وأبو رغال من بقايا ثمود[2]، وجعلوها حقيقة لا تقبل الجدل، حتى إن الحجاج تبسط مع أحد محدثيه وهو أبو العسوس الطائي - فسأله لمعرفته بالأنساب -: "أي أقدم أنزول ثقيف الطائف أم نزول طيء الجبلين؟

فقال أبو العسوس: إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيء الجبلين قبلها، وإن كانت ثقيف من ثمود فهي أقدم". مما أغضب الحجاج فقال: "يا أبا العسوس! اتقني فإني سريع الخطفة للأحمق المتهوك"[3].

ويبدو أن هذه الرواية قد شاعت كثيراً أيام الحجاج واستغلها الشعراء كقول أعشى همدان[4]:

---

(١) ابن الكلبي: جمهرة النسب ص٣٨٨.

(٢) انظر: البلاذري: أنساب الأشراف ٢٦/١.

(٣) انظر: المبرد: الكامل ٤٠٩/٢.

(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١١٢.

يَـأْبَى الإلـهُ وَعِـزَّةُ ابـنِ مُحَمَّـدٍ وَجُـدُودُ مُلْـكٍ قَبْـلَ آلِ ثَمُـودِ
أَنْ تَأْتَـسُوا بِمُـذَمِّمِينَ عُـرُوقِهِمْ فِـي النَّـاسِ إِنْ نُـسِبُوا عُـرُوقَ عَبِيـدِ

وكقول شبيب[1]:

عَبْدٌ دَعِيٌّ مِنْ ثَمُودٍ أَصْلُهُ لا بَلْ يُقَالُ أَبُو أَبُوهُمْ يَقْدُمِ

فلم يكتفوا بجعله من ثمود صريحاً، بل جعلوه عبداً فيها. ويبدو أن الشعراء أكثروا على الحجاج بتعييره بهذا الأمر حتى إن الحجاج كان يقف على المنبر ويحاول أن يدفع هذه النسبة عن ثقيف[2]. بل اضطره شيوعها إلى إن يحسنها إن صحت[3].

والشعراء الهاجون ينسبون الحجاج إلى ثقيف أيضاً، بل هم يصورونه ثقيفاً كقول أعشى همدان[4]:

أَمْكَنَ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانْ يَوماً إلى اللَّيلِ يُسَلِّي مَا كَانْ

وقال أرطاة بن سهيه[5]:

وَلا وَاللهِ مَا كَرُمَتْ ثَقِيفٌ وَلا كَانُوا عَلَى كَلْبٍ نَصِيرا

يقوله حين حمل الحجاج سعيداً وحلحلة الكلبيين من مكة إلى الخليفة بدمشق ليقتاد منهما[6]، فليس الذي يحارب ابن الأشعث قبيلة ثقيف، وليس الذي قاد الرجلين إلى الخليفة قبيلة ثقيف، بل هو الحجاج فقط، ولكن الشاعرين عبرا عن الحجاج بثقيف كأنما هي قبيله وضيعة يوصم صاحبها بها، أو أنهم يطعنون على الحجاج أنه استأثر القبيلة بالمناصب لما تولى الإمارة كما فعل بأخيه محمد (ت ٩١هـ) فجعله أميراً على اليمن، وجعل الحكم بن أيوب (ت نحو ٩٧هـ) ابن عمه وزوج أخته أميراً على البصرة، فكأنما الحجاج إذا أراد أمراً أرادته مجموعة كبيرة من ثقيف من حوله. وقد ركز أحد أصحاب

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/٢٣٣.
(٢) انظر: المبرد: الكامل ٢/٤٠٩.
(٣) انظر: البلاذري: أنساب الأشراف ١/٢٥.
(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٦٤.
(٥) البلاذري: أنساب الاشراف ٥/٣١٣.
(٦) انظر: البلاذري: أنساب الأشراف ٥/٣١٣.

المهلب على قبيلة مبعوث الحجاج إلى المهلب يستعجله القتال، فقال غاضباً للمهلب[1]:

مَازِلْتَ يَا ثَقَفِيُّ تَخْطُبُ بَيْنَنَا ... وَتَغُمُّنَا بِوَصِيَّةِ الحَجَّاجِ

حَتَّى إِذَا مَا المَوتُ أَقْبَلَ زَاحِفاً ... وَسَمَا لَنَا صِرْفاً بِغَيْرِ مِزَاجِ

وَلَّيْتَ يَا ثَقَفِيُّ غَيْرَ مُنَاظِرٍ ... تَنْسَابُ بَينَ أَحِزَّةٍ وَفِجَاجِ

والثقفي هنا هو عُبيد بن أبي ربيعة الثقفي[2]، والشاعر على معرفته باسمه أصر على التذكير بقبيلته لغضبه من الحجاج كأنما يطعن عليه وعلى الحجاج معاً.

ومما يرتبط بالمعني الثاني قول محمد بن عبد الله النميري [3]:

فَلِي عَنْ ثَقِيفٍ إِنْ هَمَمْتُ بِنَجْوَةٍ ... مَهَامَةُ تَهْوِي بَيْنَهُنَّ الهَجَارِعُ[4]

فالنميري من ثقيف أيضاً، لكن كما يبدو يريد ثقيف الغاشمة التي تحيط بالحجاج وتساعده ويساعدها.

تعيير الحجاج بمهنته قبل الولاية:

وعلاوة على الطعن في أصله من حيث النسب طعنوا في منشأه من حيث الحسب، فالحجاج ووالده مجرد معلمين في الطائف يجري عليهما ما يجري على المعلمين من فقر وحاجة وحمق، فقال الشاعر[5]:

أَيَنْسَى كُلَيْبٌ زَمَانَ الهُزَالِ ... وَتَعْلِيمَهُ سُورَةَ الكَوْثَرِ

رَغِيفٌ لَهُ حَلْقَةٌ مَا تُرَى ... وَآخَرُ كَالقَمَرِ الأَزْهَرِ

فهو يسخر من مهنته وكيف أنها لا تقوم بأوده، ويلاحظ أن الشاعر لم يشر له باسمه الحجاج، بل اختار أحقر ألقابه ليضيفه على تعييره بنشأته. وقال مالك بن الريب[6]:

---

(١) المبرد: الكامل ٣/١١٥٩.

(٢) انظر: المبرد: الكامل ٣/١١٥٩.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/١٨٨.

(٤) الهجارع: الخفيف من الكلاب السلوقية.

(٥) ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة، دار المعارف، ط٤) ص ٥٤٨، المبرد: الكامل ٢/٤٤٧.

(٦) ابن قتيبه: الشعر والشعراء ١/٣٥٤.

زَمَانَ هُوَ العَبْدُ المُقِرُّ بِذِلَّةٍ يُرَاوِحُ صِبْيَانَ القُرَى وَيُغَادِي

فهو يذهب ويجيء على الصبيان يعلمهم لذلته وعدم طموحه.

ومع أن المصادر لم تذكر إلا هذه المهنة وهي مهنة التعليم للحجاج ووالده إلا أن الشعراء جعلوا له مهناً أخرى حقيرة على العرب آنذاك مثل الدباغة. فقال كعب الأشقري[1]:

وَرَأى مُعَاوَدَةَ الدِّبَاغِ غَنِيمَةً أَيْامَ كَانَ مُحَالفَ الإقْتَارِ

فهو كالبقية يصفه بالفقر والحاجة. وعمران بن حطان جعل والده (حجاماً) في مقطوعة يغلب عليها التهكم فقال[2]:

يَا ابنَ الذي ذَلَّتِ الرِّقَابُ لَهُ قَاتَلَهُ اللهُ أيُّمَا رَجُلِ
أبُوكَ أوْهَى النِّجَادُ عَاتِقَهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أدْمَى وَمِنْ بَطَلِ
يَأخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ لَم يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ
فِي كَفِّهِ مُرْهَفٌ يُقَلِّبُهُ يَقُدُّ أعْنَاقَ سَادَةٍ بُطُلِ

فهو يهجو الحجاج بأسلوب ساخر. فكأنه يمدح في البداية. وإذا به يهجو. وكأنما هذه الصورة لوالد الحجاج اقتبسها الشاعر من حاضر الحجاج الذي يخوض الحروب والمعارك. وهذه الصورة، البطل المزيف. رائعة في هجاء الحجاج لأن أعداء الحجاج أكثر ما يؤذيهم من الحجاج حربه لهم. فكأنما يتمنون هذه الصورة للحجاج وأن يكون كوالده بطلاً مزيفاً.

فالشعراء يصرون على أن يرسموا للحجاج ماضياً حقيراً وضيعاً من ناحية الأصل والمهنة والحاجة المادية. ولتكتمل الصورة جعل يزيد بن الحكم (ت نحو ١٠٥هـ) ميراثهم من أحقر المواريث (الغنم) فقال[3]:

وَوَرِثْتُ جَدِّي مَجْدَهُ وَفِعَالَهُ وَوَرِثْتَ جَدَّكَ أعْنُزاً بِالطَّائِفِ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٤/ ٢٧٤.

(٢) الوزير المغربي: الحسين بن علي بن الحسين: الإيناس في علم الأنساب. أعده للنشر: حمد الجاسر.(الرياض. النادي الأدبي. ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م)ص١٧١.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٢/ ٢٩٠.

فلا مجد ولا فعال يبقيها له أجداده إنما أحقر الدواب عند العرب. لذلك تأمل أحد أهل الطائف في المكانة التي صار إليها الحجاج في العراق وما كان عليه في الطائف. فقال[1]:

كُليبٌ تَمَكَّنَ فِي أَرْضِكُمْ وَقَدْ كَانَ فِينَا صَغِيرَ الخَطَرْ

وليزيد من احتقاره أشار إليه باسم "كليب".

نبز الحجاج بالألقاب:

وشعراء الهجاء عادة ما يتحدثون عن الحجاج باسمه المعروف "الحجاج" ومضى على ذلك أمثلة كثيرة. وهذا إما لأن اسم الحجاج هو المتعارف عليه. أو لأنهم يخشون أن يذهب ذهن الإنسان لغيره إذا غيروا أو حرفوا في اسمه.

ويلي اسم "الحجاج" في التحدث عنه مخاطبته بـ "ابن يوسف" وهذا اللقب كثير في شعر الهجاء قياساً على ما ورد شعر المديح نحو قول سبرة بن الجعد[2]:

فَأَيُّ امْرِيءٍ أَيُّ امْرِيءٍ يَا ابنَ يوسفٍ ظَفَرْتَ بِهِ لَمْ يَأتِ غَيرَ الوَلائجِ

وقول أبي خالد اليشكري[3]:

لَأَيْقَنْتَ أَنَّا فِي حُلُوقِ عَدُوِّنَا شَجِيٌّ ناشبٍ سَلْ يَا ابنَ يوسفَ تَعْجَبِ

والخطاب باسم الأب في الهجاء يأتي لتحقير المهجو ووالده معاً كأنما يذكرونه بأصله الوضيع وينسبونه لمن يستحق التبرؤ منه.

أما قول أعشى همدان[4]:

نُبِئتُ حجاجَ بنَ يوسفَ خَرَّ مِنْ زَلَقٍ فَتَبَّا

فقد حذف الألف واللام من اسم الحجاج. وجاء هذا كثيراً في شعر الهجاء كأنما يخلعون عنه بها التفخيم والتعريف. ثم أضافه لوالده إمعاناً في السخرية فكأنما يقول: إنه لا يُعرف إلا إذ قيل اسمه كاملاً. وأيضا للتشهير به فالذي خر وتب هو الحجاج بن يوسف ولا أحد غيره. وفعلاً أغضب هذا البيت الحجاج بن يوسف كثيراً[5].

---

(١) المبرد: الكامل ٢/٤٤٧.

(٢) ابن أعثم: الفتوح ٧/٣٧.

(٣) ابن أعثم: الفتوح: ٧/١٧.

(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ٧٤.

(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٤١.

ولقب الحجاج في شعر الهجاء "كليب" وهو اسم قال الحجاج إن أمه سمته به وهو صغير[1]، وما جاء هذا الاسم في شعر الهجاء إلا للتحقير نحو قول الشاعر[2]:

أَيَنْسَى كُلَيبٌ زَمَانَ الهِزَالِ وَتَعْلِيمَهُ سُورَةَ الكَوْثَرِ

وسماه الفرزدق "الجحاد" فقال[3]:

عَجِبْتُ إِلَى الجَحَّادِ أَيَّ إِمَارَةٍ أَرَادَ لأَنْ يَزْدَادَهَا أَوْ دَرَاهِمِ

فَلَمَّا عَتَا الجَحَّادَ حِينَ طَغَى بِهِ غِنىً قَالَ إِنِّي مُرْتَقٍ فِي السَّلالمِ

كأنما هو جاحد لدين الله، وهو في الوقت نفسه على وزن اسمه. وشبيه به.

أما من ناحية الألقاب. فلقب الحجاج في الهجاء بأمير كما لقب في حال المديح إلا أنه هنا جاء للسخرية من إمارة لا يستحقها كقول عمران بن حطان[4]:

وَرَاحَ ابنُ جَعْدِ الخَيْرِ نَحْوَ أَمِيرِهِ أَمِيرٍ بِتَقْوَى رَبِّهِ غَيرِ آمِرِ

وجعلوه في الهجاء "ملكاً" ولكن ملكاً لثقيف. قال الأقيبل القيني[5]:

فَإِلا تُرِحْنَا مِنْ ثَقِيفٍ وَمَلْكِهَا نُصَلِّ لأَيَّامِ السَّبَاسِبِ وَالنَّحْسِ

فالحجاج بضربه للكعبة سيقضي على الإسلام. ويعود الناس للجاهلية مرة أخرى.

تخويف الآمنين وتشريدهم:

والحجاج له هيبة في النفوس. هيبة دفعت مجموعة من الشعراء إلى الهرب والاختباء خوفاً من الحجاج. وهؤلاء الشعراء لا ينتمون لأحزاب معارضة ولم يشتركوا في حرب ضد الحجاج أو الدولة الأموية. ومع ذلك أخذ الخوف بمجامع قلوبهم وفروا من وجهه لأسباب مختلفة ذكرها بعضهم في شعره نحو قول سوار بن المضرب[6]:

أَقَاتِلِيَ الحجاجُ إِنْ لَمْ أَزُرْ لَهُ دَرَابَ وَأَتْرُكْ عِنْدَ هِنْدٍ فُؤَادِيَا

فَإِنْ كَانَ لا يُرْضِيكَ حَتَّى تَرُدَّنِي إِلَى قَطَرِيٍّ مَا إِخَالُكَ رَاضِيَا

---

(١) انظر: ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٣٢٤.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص ٥٤٨.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/٨٥٣.

(٤) ابن أعثم: الفتوح ٧/٣٦.

(٥) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢١٤.

(٦) المبرد: الكامل ٢/٤٤٥.

فالحجاج سبق أن أعلن بعد توليه إمارة العراقين أن من لم يخرج إلى جيش المهلب بعد ثلاث سيقتل، وطبق ذلك عملياً في الكوفة والبصرة[1]، والشاعر لا يريد أن يعود لحرب قطري لما فيها من الصعوبة والجهد ولا يستطيع أن يواجه الحجاج بالرفض لذلك فضّل الهرب.

أما الأقيبل القيني فقد اعترف أنه شتم الحجاج، لذلك الحجاج غاضب منه والشاعر خائف من شره[2]:

إنّ امْـرَأً قَـالَ فـي الحجـاجِ يَـشْتُمُهُ ... وَنَابُـهُ مِـنْ دِمَـاءِ القَـومِ مَمْطُـورُ

ثُـمَّ اغْتَـدَى عَامِـداً لِلْـشَرِّ يَطْلُبُـهُ ... بَعْـدَ الجَهَالَـةِ عِنْـدِي اليَـومَ مَغْـرُورُ

فالذي يفكر في العودة لطلب الصفح من الحجاج بعد شتمه مغرور ومخدوع.

ورغم خروج هؤلاء الشعراء عن طاعة الحجاج إلا أنهم يعترفون بأنه ليس بالشخص الهين، لذا أخذ الخوف بمجامع قلب النميري على بعد المسافة بينه وبين الحجاج[3]:

أَتَتْنِـي عَـنِ الحجـاجِ وَالبَحْـرُ بَيْنَنَـا ... عَقَـارِبُ تَـسْرِي وَالعُيُـونُ هَوَاجِـعُ

فَـخِفْتُ بِهَـا ذَرْعـاً وَأَجْهَـشْتُ خِيْفَـةً ... وَلَـمْ آمَـنِ الحجـاجَ وَالأَمْـرُ فَـاظِعُ

فَبِـتُّ أُدِيْـرُ الأَمْـرَ وَالـرَّأْيَ لَيْلَتِـي ... وَقَـدْ أَخْـضَلَتْ خَـدِّي الـدُّمُوعُ التَّوابِـعُ

فهو يعترف بأنه ذرف الدموع وأجهش بالبكاء من خوفه من الحجاج.

والأقيبل القيني كذلك خاف الحجاج إلا أن أسلوبه في الخوف يختلف عن أسلوب النميري، قال[4]:

لَقَـدْ عَلِمْـتُ وَخَيْـرُ القَـولِ أَنْفَعُـهُ ... أَنَّ انطِلاقِـي إلـى الحجـاجِ تَغْرِيـرُ

لَـئِنْ ذَهَبْـتُ إلـى الحجـاجِ يَقْتُلُنـي ... إنّـي لأَحْمَـقُ مَـنْ تَحْـدَي بِـهِ العِيـرُ

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/٢١٢-٢١٣.

(٢) الرقام البصري: العفو والاعتذار ١/٣٥٩.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/١٨٨.

(٤) الجاحظ: الحيوان ٤/٢٥٣-٢٥٤.

مُسْتَحْقِباً صُحُفاً تُدْمَى طَوَابِعُهَا وَفِي الصَّحَائِفِ حَيَّاتٌ مَنَاكِيرُ[1]

فالخوف من انتقام الحجاج منعه من الذهاب له ومعه كتاب أمان من الخليفة، بل الخوف صور له هذا الكتاب دامي الطوابع يحمل الموت معه إذ فيه حيات منكرة، فكأن بطش الحجاج أقوى من الخليفة نفسه.

والشعراء الفارون من الحجاج اعتمدوا على بعد أماكنهم منه وتحصنها للشعور بالأمان. قال مالك بن الريب[2]:

وَفِي الأَرْضِ عَنْ دَارِ المَذَلَّةِ مَذْهَبٌ وَكُلُّ بِلادٍ أَوْطَنَتْ كَبِلادي
فَمَاذَا عَسَى الحجاجُ يَبْلُغُ جَهْدُهُ إذَا نَحْنُ جَاوَزْنَا حَفِيرَ زِيَادِ
فـ.... أبي الحجاج و..... عَجْوزِهِ عُتَيِّدِ بَهمٍ تَرْتَعِي بِوهَادِ[3]

وقال النميري[4]:

وَمَا أَمِنَتْ نَفْسِي الَّذي خُفْتُ شَرَّهُ وَلا طَابَ لِي مِمَّا خَشِيتُ المَضَاجِعُ
إلى أنْ بَدَا لِي رَأْسُ إسْبِيلَ طَالِعاً وَإسْبِيلُ حِصْنٌ لَمْ تَنَلْهُ الأَصَابِعُ
وَفِي الأَرْضِ ذَاتِ العَرْضِ عَنْكَ ابنَ يُوسفٍ إذَا شِئتُ مَنْأىً لا أَبَا لَكَ وَاسِعُ
فَإنْ نِلْتَنِي حجاجُ فَاشْتَفْ جَاهِداً فَإنَّ الَّذِي لا يَحْفَظُ اللهَ ضَائِعُ

---

(١) مستحقب: استحقب الشيء: حملة في مؤخرة الرحل. الطوابع: جمع طابع وهو الخاتم الذي تختم به الرسائل ونحوها.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٢٣٦، وقد وردت هذه الأبيات في ديوان الفرزدق ١/١٩٠، وعزاها له أبو تمام في ديوان الحماسة، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان (الرياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م)، ١/٣٣٩. ولكن أسلوب الأبيات الذي يعلو فيه صوت التحدي الساخر للحجاج، وموضوع الأبيات الذي يدل على هروب واختباء من الحجاج أنسب لمالك بن الريب الذي عرف باللصوصية التي حاربها الحجاج كثيراً، ثم ما ورد في مقدمة الأبيات من استهتار بالخلافة المروانية مما لا يعرف عن الفرزدق، خاصة أن كثيراً من المصادر الأدبية عزتها لمالك بن الريب مثل: ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٣٥٤، المعارف ص ٥٤٨، والمبرد: الكامل ٢/٤٤٦-٤٤٧.

(٣) عتيد: تصغير عتود وهو ما دار عليه الحول من أولاد المعزى.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/١٨٨.

وقال سوار بن المضرب[1]:

إذَا جَاوَزَتْ دَرْبَ المجُيزِينَ نَاقَتي ... فـ..... أبي الحجاج لَمَّا ثَنَانِيَا

ويلاحظ على الأبيات علو نبرة التحدي للحجاج والتحدث إليه بأسلوب يفتقر إلى الأدب، فكأنما أمنوا الحجاج لأمان المكان الذي فروا إليه، ومالك بن الريب والنميري يضيفان بأن في الأرض أماكن كثيرة للاختباء عن الحجاج أو عن ذي الجور بوجه عام. والمراد به هنا الحجاج. فكأنهما يحرضان غيرهما على تحدي الحجاج مثلهما.

ورغم أن هؤلاء الشعراء صبوا جام غضبهم على الحجاج إلا أنهم يشعرون بأن الحجاج منفذ لأوامر الخليفة؛ لذلك يعلنون أن غضبهم أيضا غضب على بني مروان، قال مالك بن الريب[2]:

فَإنْ تُنْصِفُونَا آلَ مَرْوَانَ نَقْتَرِبْ ... إلَيكُمْ وَإلا فَأْذَنُوا بِتَعَادِي

فَإنَّ لَنَا عَنْكُمْ مَرَاحاً وَمَرْحَلاً ... بِعِيسٍ إلى رِيحِ الفَلاةِ صَوَادِي

وقال سوار بن المضرب[3]:

أَيَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي ... وَقَومِي تَمِيمٌ وَالفَلاةُ وَرَائِيا

فمالك بن الريب اعتمد على ناقته وقدرتها على حمله إلى أبعد الأماكن عن بني مروان أما سوار بن المضرب فاعتمد على قومه تميم والفلوات التي تحميه من بني مروان.

فقد تحدى هؤلاء الشعراء الحجاج، وصوروه بالإنسان الناقم الغادر الذي لا يؤمن شره، يزرع الرعب في القلوب على بعد المسافات، وتوجهوا له وهو الأمير بأقبح الألفاظ التي يتعفف عنها المسلم، بل وصلوا هذا التحدي ببني مروان الذين يدين لهم الحجاج بالولاء، ويسعى لتثبيت ملكهم، ولكن هؤلاء الشعراء لم يجرؤوا على قول ذلك إلا بعد أن ابتعدوا مسافة كبيرة عن الحجاج.

الرغبة عن إنكاح الحجاج:

وقد تتبع الشعراء الحجاج بن يوسف في حياته الشخصية، فكان هناك آراء في

---

(١) المبرد: الكامل ٢/٤٤٥.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٢٣٦.

(٣) المبرد: الكامل ٢/٤٤٥.

زواجه سجلها الشعراء، ولعل أقساها أبيات جعفر بن الزبير التي يستنكر فيها زواجه بابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠هـ)[١]:

وَجَدْتَ أميرَ المؤمنين ابنَ يوسفٍ ... حَمِيّاً مِنَ الأَمْرِ الذي جِئتَ تَنْكُفُ
وَنُبِّئْتُ أَنْ قَدْ قَالَ لَمَّا نَكَحْتَهَا ... وَجَاءَتْ بِهِ رُسْلٌ تُخِبُّ وتُوجِفُ
سَتَعْلَمُ أَنِّي قَدْ أَنِفْتُ لِمَا جَرَى ... وَمِثْلُكَ مِنْهُ عَمْرَكَ اللهِ يُؤْنَفُ

فهو فرح جداً بموقف الخليفة من هذه الزيجة، ومنعه إتمامها باسلوب شديد اللهجة يدل عليه البيت الثالث، والشاعر يخاطب الحجاج بابن يوسف كأنما يحقر بذلك من شأنه ويذكره بأصله، فهو لا يعدو أن يكون ابن يوسف، ثم يعلل السبب الذي كاد يساعد على إتمام هذه الزيجة فقال[٢]:

وَلَولا انتِكَاسُ الدَّهْرِ مَا نَالَ مِثْلَهَا ... رَجَاؤُكَ إِذْ لَمْ يَرْجُ ذَلِكَ يوسفُ
أَبِنْتُ المُصَفَّى ذِي الجَنَاحَينِ تَبْتَغِي ... لَقَدْ رُمْتَ خَطْباً قَدْرُهُ لَيْسَ يُوصَفُ

فظروف الدهر هي التي جعلته يحلم بالزواج بها، مع أن والده يوسف لم يكن ليفكر في ذلك مجرد تفكير لبعده عن الواقع، وهو بهذا يعود ليحقر من أصل الشاعر مرة أخرى بتذكيره بوالده وأنه مجرد ابن لأب وضيع.

وتستمر سلسلة الندم على تزوج الحجاج من أهالي زوجاته، فحميدة بنت النعمان (ت نحو ٨٥هـ) تأسف على زواجه بابنتها، قالت[٣]:

إِذَا تَذَكَّرْتُ نِكَاحَ الحجاجْ ... مِنَ النَّهَارِ أَوْ مِنَ اللَّيلِ الدَّاجْ
فَاضَتْ لَهُ العَينُ بِدَمْعٍ ثَجَّاجْ ... وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ بِوِجْدٍ وَهَّاجْ
لَوْ كَانَ نُعْمَانُ قَتِيلَ الأَعْلاجْ ... مُسْتَوِي الشَّخْصِ صَحِيحَ الأَوْدَاجْ
قَدْ كُنْتُ أَرْجُو بَعْضَ مَا يَرْجُو الرَّاجْ ... أَنْ تُنْكَحِيهِ مَلِكاً ذَا تَاجْ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٥/١٠.١١.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١١/١٥.

(٣) ابن طيفور: بلاغات النساء ص ١٣٨.

وقد يكون زواج الحجاج بهند بنت أسماء بن خارجة (ت نحو ١٠٠هـ) هو أكثر موضوع انطلقت حوله الآراء، ففي البداية كان الرضا عن الحجاج زوجاً، رغم عدم توقع ذلك. قال أسماء بن خارجة مخاطباً محمد بن عمير (ت ٨٥هـ) الذي أوصى الحجاج بخطبة هند[١] متعمداً الإساءة لوالدها بذلك[٢]:

فَزَوَّجْتُهَـــا الحجـــاجُ لا مُتَكَارِهـــاً ... وَلا رَاغِبـاً عَنْـهُ وَنِعْـمَ أَخُـو الـصِّهْرِ

أَرَدْتَ ضِـــرَارِي فَاعْتَمَـــدْتَ مَـسَرَّتِي ... وَقَدْ يُحْسِنُ الإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي

ولكن هذا الرضا ما لبث أن تغير مع مرور الأيام، وإذا الندم يدفعه لتمني أمنية شديدة على الأب، قال أسماء[٣]:

يَا لَيتَ هِنداً أَصْبَحَتْ مَرْمُوسَةً ... أَوْ لَيْتَهَا جَلَسَتْ عَنِ الأَزْوَاجِ

فهو يتمني أن ابنته جثة هامدة أو ظلت عانساً ولم تتزوج الحجاج.

ولا تختلف مشاعر هند عن مشاعر والدها الأخيرة هذه حين قالت شامتة بالحجاج[٤]:

أَلا يَـــا أَيُّهَـــا الجَـــسَدُ المُـــسَجَّى ... لَقَـــدْ قَـــرَّتْ بِمَـــصْرَعِكَ العُيُـــونُ

وَكُنْـــتَ قَـــرِينَ شَـــيْطَانٍ رَجِـــيمٍ ... فَلَمَّـــا مِـــتَّ سَـــلَّمَكَ القَـــرِينُ

فهي تشمت به في أكثر لحظة تنطلق فيها مشاعر الرحمة، وتخف فيها حدة الحقد، وتنسى الإساءة ساعة الموت.

والحجاج بن يوسف من قبيلة عربية معروفة هي قبيلة ثقيف، وثقيف منذ العصر الجاهلي من مناكح قريش سيدة العرب، ثم إن الحجاج أمير له وزنه على شطر الدولة الإسلامية، بل هو ذراع الخليفة الأيمن الذي يعلن الخليفة دائماً رضاه عنه ومحبته له بل حاجته إليه، ومع ذلك كله كره الناس زواجه منهم، والسبب ذكره أسماء بن خارجة

---

(١) انظر: أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٠/٣٣٤.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٠/٣٣٤.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٧/١٦٠.

(٤) المسعودي: أبو الحسن على بن الحسين بن على: التنبيه والإشراف (بيروت، مكتبة خياط) ص ٣١٨.

في قوله[1]:

أَبَنِـي فِـزَارَةَ لا تُعَنُّـوا شَـيْخَكُمْ ... مَـالِـي وَمَـالِزِيَـارَةِ الحجـاج

لا تَطْلُبُـوا حَاجـاً إليـهِ فَإِنَّـهُ ... بُـؤسَ المُؤَمَّـلِ فـي طِـلابِ الحَـاج

فالحجاج لا يخضع لعنصر القرابة، فلا يمكن أن ينفع أحداً لعلاقة قرابة أو مصاهرة، لذلك لا فائدة من تزويجه.

السخرية من إصلاحات الحجاج:

وللحجاج إصلاحات مادية ملموسة غفل عنها مادحوه وذكرها هاجوه. وهم وإن كانوا ذكروها للتنقيص منها ومن الحجاج إلا أن أبيات الهجاء هذه كتبت لهذه الإصلاحات البقاء، وحفظت حق الحجاج في الابتداع فيها، منها أنه أول من عمل المحامل[2]. قال بعض رجاز الأكرياء[3]:

أَوَّلُ عَبْدٍ عَمِلَ المَحَامِلا ... أَخْزَاهُ رَبِّي عَاجِلاً وَآجِلا

فهو غاضب منه يدعو عليه بالخزي العاجل والآجل.

والحجاج أول من ضرب درهماً "عربياً" قال عمران بن عصام (ت نحو ٨٥هـ) وهو من جند المهلب، يمدح المهلب ويعرض بالحجاج[4]:

ضَـرَبُوا الـدَّرَاهِمَ فـي إمَـارَتِهِمْ ... وَضَـرَبْتَ لِلْحَـدَثَانِ وَالحَـرْبِ

حِلَقـاً تُـرَى مِنْهَـا مَـرَافِقُهُمْ ... كَمَنَاكِـبِ الجَمَّالَـةِ الجُـرْبِ

فالمهلب يفكر في الحرب لذا ابتكر لجنوده نوعاً جديداً من الركاب[5]، أما الأمير الحجاج، فيفكر في المال وتطوير النقود[6]، فالمهلب تفكيره للآخرة والحجاج للدنيا.

ومن إصلاحاته الداخلية أنه لما خرب السواد وقل إنتاجه شكا الناس للحجاج ذلك.

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٦٠/١٧.

(٢) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٣٠٤/٢.

(٣) الجاحظ: البنان والتبيين ٣٠٤/٢.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٤٧/٢.

(٥) انظر: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٤٧/٢.

(٦) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص ٢٨١.

فرأى الحل في تحريم لحوم البقر ليكثرَ البقر ويستعان به على الحرث، وبالتالي تنتعش الزراعة في السواد[1]، وهو حل مناسب، إلا أن هاجيه توصلوا إلى تصويره حلاً مضحكاً غير مناسب، فقال بعض الشعراء[2]:

شَكَونَا إليه خَرَابَ السَّوَادِ ... فَحَرَّمَ فِينَا لُحُومَ البَقَرْ
فَكُنَّا كَمَا قِيلَ فِي بُعْدِهِ ... أُرِيهَا السُّهَا وَتُرِينِي القَمَرْ

فهم يصورون الحل بعيداً عن المشكلة، فما العلاقة بين فساد الزرع ولحوم البقر! إلا أن المتأمل يجد بينهما علاقة كما رأى الحجاج.

بخل الحجاج:

والأمير من أهم صفاته الكرم وبذل المعروف، أما الحجاج فقد وصفه هاجوه بالبخل الشديد متخذين من الموازنة سبيلهم لإظهار هذه الصفة في الحجاج ليكون أكثر إصغاراً للحجاج، فعمرو بن يزيد النهدي يوازن بينه وبين مصعب بن الزبير (ت ٧٢هـ) قال[3]:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الجُودَ إِذْ مَاتَ مُصْعَبٌ ... دَفَنَّاهُ وَاسْتَرْعَى الأَمَانَةَ ذِيبُ

وقال العديل موازناً بينه وبين قائده المهلب[4]:

لَئِنْ أَرْتَجَ الحجاجُ بِالبُخْلِ مَالَهُ ... فَبَابُ الفَتَى الأَزْدِيِّ بِالعُرفِ يفْتَحُ
وَلَيْسَ كَعِلجٍ مِنْ ثَمُودَ بِكَفِّهِ ... مِنَ الجُودِ وَالمَعْرُوفِ حِرْمٌ مُطَوَّحُ

تكفير الحجاج:

وتحدث الشعراء الهاجون عن مدى التزام الحجاج الديني، فأعشى همدان رآه تحول من الإيمان إلى الكفر[5]:

---

(١) انظر: العسكري: أبا هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الأوائل، تحقيق: وليد قصاب، ومحمد المصري (الرياض، دار العلوم) ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) العسكري: الأوائل ص ٢٤٧.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/ ٢٨٠.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٢/ ٣٦٠.

(٥) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٦٤.

إنَّا سَمَونَا لِلكَفُورِ الفَتَّانْ حِينَ طَغَى في الكُفْرِ بَعْدَ الإيْمَانْ
بِالسَيِّدِ الغِطْرِيفِ عَبْدِ الرَّحْمَنْ

لذلك هو بحاجة إلى تأديب. وسيكون ذلك على يد ابن الأشعث وكذلك رأى الطفيل بن عامر بن واثلة من أصحاب ابن الأشعث[1]:

أَتَوكَ يَقُودُونَ المَنَايَا وَإِنَّمَا هَدَتْهَا بِأُولانَا إِلَيكَ ذُنُوبُ
أَلا أَبْلِغ الحجاجَ أَنْ قَدْ أَظَلَّهُ عَذَابٌ بِأَيْدِي المُؤمِنينَ مُهِيبُ

فذنوبه هي التي جرت عليه الحرب. وتأديبه سيكون على أيدي المؤمنين. فهو غير معدود منهم.

أما الفرزدق فقد أخذ عليه عدم قبول النصيحة الدينية[2]:

وَكَانَ إِذَا قِيلَ اتَّقِ اللّهَ شَمَّرَتْ بِهِ عِزَّةٌ لايُسْتَطَاعُ جِدَالُهَا

وشبهه الفرزدق بابن نوح في غروره وكفره فقال[3]:

فَلَمَّا عَتَا الجَحَّادُ حِينَ طَغَى بِهِ غِنىً قَالَ إِنِّي مُرْتَقٍ فِي السَّلالمِ
فَكَانَ كَمَا قَالَ ابنُ نُوحٍ سَارتَقِي إِلى جَبَلٍ مِنْ خَشيَةِ الماءِ عَاصِمِ
رَمَى اللّهُ في جُثْمَانِهِ مِثْلَ مَا رَمَى عَنِ القِبْلَةِ البَيْضَاءِ ذَاتِ المحَارِمِ
جُنُوداً تَسُوقُ الفيلَ حَتَّى أَعَادَهَا هُبَاءً وَكَانُوا مُطَرْخِمِيّ الطَّرَاخِمِ

فكانت نهايته كنهاية ابن نوح موت دون توبة. وكنهاية أصحاب الفيل الذين رمتهم طيراً أبابيل.

أما الخوارج فلا عجب أن رأوه ممن لا يأمر بالمعروف. قال قطري[4]:

لَشَتَّانَ مَا بَينَ ابنِ جَعْدٍ وَبَيْنَنَا إِذَا نَحْنُ رُحْنَا فِي الحَدِيدِ المُظَاهِرِ
وَرَاحَ ابنُ جَعْدِ الخَيْرِ نَحْوَ أَمِيرِهِ أَمِيرٍ بِتَقْوَى رَبِّهِ غَيْرِ آمِرِ

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٣.
(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٦٢٢.
(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٨٥٣.
(٤) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٣٦.

سفكه للدماء:

أما سفكه للدماء فقد تحدث عنه أسماء بن خارجة فقال[1]:

شَبَّهْتَهُ شِبلاً غَدَاةَ لَقَيْتُهُ ... يُلْقِي الرُّؤوسَ شَوَاخِبَ الأَوْدَاجِ

تَجْرِي الدِّمَاءُ عَلَى النِّطَاعِ كَأَنَّهَا ... رَاحٌ شَمُولٌ غيرُ ذاتِ مِزَاجِ

فهو يجعله كالأسد الذي يكثر القتل حتى تسيل الدماء بين يديه، أما الأقيبل القيني فقال[2]:

إن امرأً قَامَ فِي الحجاجِ يَشْتُمُهُ ... وَنَابُهُ مِنْ دِمَاءِ القومِ مَمْطُورُ

فأسماء جعل الدماء تسيل بين يديه والأقيبل جعله ممطوراً بالدماء لكثرة قتله، وكلا الشاعرين ذكرا كثرة قتله للاعتذار عن القدوم عليه، أما خليفة بن خالد بن الهرماس فقد تجرأ على الحجاج أكثر إذ قال[3]:

فَلِلَّهِ حجاجُ بنُ يوسفَ حَاكِماً ... أَرَاقَ دِمَاءَ المُسلمينَ بِلا جُرْمِ

فهو يريق دماء المسلمين بالذات دون سبب شرعي، فقتله الحجاج على هذا البيت بعد أن كان قد عفا عنه.

السخرية من هيئة الحجاج:

أما هيئة الحجاج فلم يغفل عنها الشعراء الهاجون، فسخر من عينيه إمام بن أقرم فقال[4]:

وَلا الحجاجُ عَيْنَي بنتِ مَاءٍ ... تُقَلِّبُ طَرْفَها حَذَرَ الصُّقُورِ

فجمع له بين السخرية من شكل عينيه، وبين وصفه بالجبن، وعُد هذا من التشبيه المحمود، فعيناه تشبه عيني طيور الماء إذا ارتعبت، وكذلك الراجز قال[5]:

هَلُمَّ هَاتُوا صِفَةَ الحجاجِ ... كَأَنَّ عَيْنَيْهِ مِنَ الزُّجَاجِ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٦١/١٧.

(٢) الرقام البصري: العفو بالاعتذار ٣٥٩/١.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٣٦/١٢.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ٣٨٦/١.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٤٠٠/١٢.

كَأنَّ سَاقَيْهِ عَمُـودا سَـاجِ

فسخر من شكل عينيه ومن ساقيه، وسخر قطبة بن زياد من ساعديه فقال[1]:

خَبَثْعَنَةٌ في سَاعِدَيْهِ تَفَاوتٌ كَرِيهِ المُحَيَّا قَرْنَهُ غَيْرُ وَائِلِ[2]

فالحجاج كانت عيناه تلفتان النظر فشبهها الشاعر الأول بعيني طيور الماء والشاعر الآخر بعيون الزجاج، كما كان في أطرافه عيوب كما رآها هؤلاء الشعراء، واختصر قطبة بن زياد وصفه بقوله "كريه المحيا" وكل شخص فعلاً كريه بالنسبة لأعدائه.

تحسن الأحوال بعد موته:

وقد تبدلت الأحوال بعد الحجاج كما ذكر هاجوه من الشعراء، تبدلت على أهل العراق وعلى أهل الحجاج أنفسهم، أما أهل العراق فصور الفرزدق موته خيراً عليهم فقال[3]:

وَقُلْتُ لأَهْلِ المشْرِقَينِ أَلَمْ تَكُنْ عَلَيْكُمْ غُيُومٌ وَهْيَ حُمْرٌ ظِلالُهَا

فَبُدِّلْتُمْ جُودَ الرَّبِيعِ وَحُوِّلَتْ رَحىً عَنْكُمُ كَانَتْ مُلِحّاً ثفالهَا

أَلا تَشْكُرُونَ اللّهَ إِذْ فَكَّ عَنْكُمُ أَدَاهِمَ بِالمَهْدِيِّ صُمّاً ثِقَالهُا

وَشِيمَتْ بِهِ عَنْكُمْ سُيوفٌ عَلَيْكُمُ صَبَاحَ مَسَاءً بِالعِرَاقِ اسْتِلالهُا

فالحجاج كان كالغيوم الحمراء التي تنذر بالقحط والشدة، وكالرحى الثقيلة وكالقيود الشديدة فأزاحه عنهم سليمان بن عبد الملك، وأزاح كذلك السيوف التي سلطها على أهل العراق صباحا مساء، فبموت الحجاج كان الفرج لأهل العراق، وبموته حل الفرج على الهاربين من جبروته في أنحاء البلاد، كالفارين من فلول جيش ابن الأشعث[4]:

أَلِكَنِي إِلَى مَنْ كَانَ بالصِّينِ إِذْ رَمَتْ بِهِ الهندُ أَلْوَاحٌ عَلَيْهَا جِلالُهَا[5]

---

(١) الرقام البصري: العفو والاعتذار ٢١١/١.

(٢) خبثعنة: العظيم الشديد من الأسد.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٦٢٠/٢ و ٦٢٢.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٦٢٣/٢.

(٥) ألواح عليها جلالها: يريد السفن.

هلُـمَّ إلـى الإسـلامِ والعَـدْلِ عِنْـدَنَا فَقَـدْ مَـاتَ عَـنْ أَرْضِ العِـرَاقِ خَبَالُهـا

فهو يدعوهم للعودة إلى البلاد حيث شاع فيها الإسلام والعدل اللذان كانت البلاد محرومة منهما بوجود الحجاج.

أما أهل الحجاج فقد أفسح موته مجالاً للانتقام منهم[1]:

لَـئِنْ نَفَـرَ الحجـاجُ آلُ مُعَتِّـبٍ لَقُـوا دَوْلَـةً كَـانَ العَـدُوُّ يـدالُهَا[2]

لَقَـدْ أَصْـبَحَ الأحْيَـاءُ مِـنْهُمْ أَذِلَّـةً وَفِـي النَّـارِ مَثْـوَاهُمْ كُلُوحـاً سِـبَالُهَا

وَكَـانُوا يَـرَوْنَ الـدَّائِرَاتِ بِغَيْـرِهِم فَـصَارَ عَلَـيْهِمْ بِالعَـذَابِ انْفِتَالُهـا

فالانتقام شمل جميع آل معتب وليس فقط أبناء الحجاج أو أبناء يوسف وشمل الشر الأحياء منهم والأموات. وكانوا في السابق بعيدين عن كل أذى، والآن سُلط عليهم العذاب، وصدقت تلك المرأة الباكية على الحجاج[3]:

اليَوْمَ يَرْحَمُنا مَنْ كَانَ يَحْسُدُنَا واليومَ نَتْبَعُ مَنْ كَانُوا لَنَا تَبَعَا

بين الصورة الشعرية والصورة التاريخية:

إن أول ما يلفت النظر هو أن الصورة التاريخية للحجاج تسيطر عليها صورته السلبية. فمعظم المترجمين رسموا له صورة غاية في السوء[4]، بينما عالم الشعر سيطرت عليه صورته الإيجابية، ففرق شاسع من حيث الكمية بين الأبيات التي رسمت صورته الإيجابية وتلك التي عبرت عنها صورته السلبية، ومع أن هذا الشعر كله قيل في وقت الحجاج

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٢٢.

(٢) نفر: قوم. يدالها: ينتصر عليها.

(٣) الحاجظ: فصل ما بين العداوة والحسد (ضمن رسائل الجاحظ) ١/٣٧٢.

(٤) انظر: على سبيل المثال: المسعودي: مروج الذهب ٢/١٥٣ - ١٥٥. ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ (بيروت، دار صادر، ط٦، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م) ٤/٥٨٣. الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء. تحقيق: مأمون الصاغرجي، أشرف على التحقيق: شعيب الأرناؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ٤/٣٤٣. ابن كثير: البداية والنهاية ٩/١١٧ - ١٤٠. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن على العسقلاني: تهذيب التهذيب (حيدر آباد، دائرة المعارف النظامية، ط١، ١٣٢٥هـ) ٢/٢١٠ - ٢١٣.

ومعظم صانعي الصورة الإيجابية من الشعراء الكبار أصحاب الدواوين، إلا أن الصورة التاريخية على ما يبدو لم تتأثر كثيراً بالصورة الأدبية للحجاج.

الصورة الحربية:

إن أهم صفة ركز عليها الشعراء هي الصورة الحربية والدور العسكري للحجاج وقد استغرقت هذه الناحية معظم الشعر الذي دار حول الحجاج، واتفقت الصورتان الإيجابية والسلبية على التفصيل فيها. وهذا أمر يتفق تماماً مع ما أثبتته كتب التاريخ عن سيرة الحجاج وكثرة خوضه للمعارك. فمنطقة إمارة الحجاج منطقة تموج بالقلاقل العقدية والسياسية، لذا فبمجرد أن تولى إمارة العراق كان مسؤولاً عن إنقاذ جيش المهلب، وحث الجند على العودة إليه[1] مما جعله يتخذ شخصية القائد العسكري. وما كاد يبعث الجيش إلى المهلب عام ٧٥هـ حتى خلعه أهل العراق في تلك السنة، واجتمعت مضر وربيعة واليمن على عبد الله بن الجارود (ت ٧٥هـ) لمحاربة الحجاج وخلعه، فالتقوا برستقباذ، فانتصر عليهم الحجاج وقتل قائدهم[2]، ثم توالت سلسلة الأيام في حياة الحجاج.

وكان أكبر تركيز من الشعراء على أيام الحجاج مع ابن الاشعث من ناحية الصورتين الإيجابية والسلبية وما صورته كتب التاريخ عن هذه الأيام تجعلها جديرة بما قيل فيها من الشعر، وما قيل في قائدها من المديح وما وصمه به أعداؤه من الهجاء.

وحرب الحجاج مع الخوارج مع شدتها وقوتها وأهميتها تحدث عنها هاجوه أكثر من مادحيه وقد يكون السبب في ذلك أن شعراء من غير الخوارج رموا فيها بشباكهم أمثال جند المهلب الغاضبين على الحجاج، والشعراء الفارين من حرب الخوارج الناقمين على الحجاج.

ومما يرتبط بالشخصية الحربية للحجاج، كثرة وصفه بالجبن من قبل هاجيه من الشعراء فهو جبان، فرَّار من المعركة، يتحصن بالحوائط والأبواب، بل استغل هاجوه عنصر المرأة، في إثبات هذه الصفة على الحجاج.

وما تثبته الصورة التاريخية للحجاج من كثرة ما واجه من حروب متتالية في شتى

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/٢١٣.

(٢) انظر: ابن حبيب: المحبر ص٤٨٢.

أنحاء منطقة إمارته الواسعة وخروجه منها منتصراً، يدل على شجاعة منقطعة النظير، وخبرة في الحرب وممارسة لأهوالها، وقد تكون هذه الصفة ألصقت بالحجاج لما عرف عنه من عدم مباشرة للقتال بنفسه، إذا كان يخرج مع الجيش ويتخذ له كرسياً خلف المقاتلين، يراقب وينصح ويوجه[1]، لكن لا يباشر القتال إلا قليلاً، فهذا التصرف من الحجاج ألهم هاجيه من الشعراء أبياتهم في هجائه بالجبن والتحصن خلف الأسوار، وإن أضطر لخوض معركة فلقلة خبرته مصيره فيها الفرار على حسب رأي هاجيه.

سفكه للدماء:

ولعل أهم ما حُمل على الحجاج هو سفكه للدماء حتى قال ابن كثير: "الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء"[2]، وحتى قالت أسماء بنت أبي بكر (ت ٧٣هـ) أما إني سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: "إن في بني ثقيف مبيراً وكذابا، فأما المبير فأنت، وأما الكذاب فالمختار بن أبي عبيد"[3]، ومع ذلك لا يوجد في الشعر ذكر لسفكه للدماء بما يستحقه من تفخيم ولا يستغل في الهجاء الاستغلال الأمثل، إذ كل ما ورد حول ذلك في شعر الهجاء ثلاثة أبيات فحسب.

وقد كان الحجاج سفك فيمن سفك دماء الصالحين والعباد بدءاً بعبد الله بن الزبير (ت ٧٣هـ) أثناء حربه له في مكة، وانتهاء بسعيد بن جبير (ت ٩٤هـ) لخروجة مع ابن الأشعث، وبين هذا وذاك أريقت دماء كثيرة للصالحين والعباد وأبناء كبار الصحابة، وقد سكت راسمو الصورة السلبية عن حوادث القتل هذه وأما راسمو الصورة الإيجابية فقد نظروا إلى الأمر على أنه مديح، بل يلاحظ قوة اللهجة وشدتها في هجاء أعداء الحجاج حتى قال جرير عن قتل عبد الله بن الزبير في معرض إشادته بأفعال الحجاج[4]:

ألا رُبَّ جَبَّارٍ حَمَلْتَ على العَصَا ... وَبَابُ ..... عَنْ مِنْبَرِ المُلْكِ زَائِلُ

تَمَنَّى شَبِيبٌ مُنْيَةً سَفُلَتْ بِهِ ... وَذُو قَطَرِيٍّ لَفَّهُ مِنْكَ وَابِلُ

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٢٥٠-٢٥٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٣٣.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص ٢٦٧، ونص الحديث: "إن في ثقيف كذاباً ومبيراً" أحمد بن حنبل: المسند، شرحه ووضع فهارسه: أحمد محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف) ٨/ ١٨.

(٤) ديوان جرير ١/ ٤٠٨.

فجعل هذا الصحابي الجليل في مصاف شبيب وقطري الخارجيين. بل ذكره بأسلوب أكثر إيذاء للكرامة منهما، وقد يكون علة ذلك أن عبد الله بن الزبير طمح للخلافة ونازع فيها بني أمية حتى كاد يسلبهم إياها، مما أحنقهم عليه، كما ورد في شعر الفرزدق[1]:

رَامُوا الخِلافَةَ عَنْ غَدْرٍ فَأَخْطَأَهُمْ مِنْهَا صُدُورٌ وَفَازُوا بِالعَرَاقِيبِ

وهذا الأمر يبعث على عدم الإكثار من ذكر عبد الله بن الزبير أو مقتله في الشعر، فكيف بتخطئة الحجاج وتعييره بقتله.

أما سعيد بن جبير فقد كان من الموالين لبني أمية وكتب التاريخ تتفق على أن قتله خطأ كبير في حق الإسلام والمسلمين[2] ومع ذلك لم يُصغ بيت شعر واحد في تهجين قتله. فيما اطلعت عليه من مصادر. بل صاغ جرير بيت شعر يهجن فعل سعيد بن جبير، ويصوب فعل الحجاج به، فقال مادحاً للحجاج[3]:

يَا رُبَّ نَاكِثِ بَيْعَتَينِ تَرَكْتَهُ وَخِضَابُ لِحْيَتِهِ دَمُ الأَوْدَاجِ

وعرف عن الحجاج أيضاً قتله لرجال كبار في السن قد ابيضت لحاهم في مواطن مختلفة، مثل قتله عمير بن ضابئ في الكوفة، وشيخاً كبيراً من بني يشكر في البصرة[4] لتخلفهما عن الخروج إلى المهلب، ثم قتله كميل بن زياد النخعي من أصحاب ابن الأشعث ورجلاً معتزلاً الناس من خثعم بعد انتهاء حربه مع ابن الأشعث[5]، وكلهم كما يقولون لم يبق من عمرهم إلا ظمء حمار. وهذه الحوادث كان فيها فرصة للهاجين إلا أنها لم تستغل، واستغلها المادحون كقول الفرزدق[6]:

وَخَاضِبِ لِحْيَةٍ غَدَرَتْ وَخَانَتْ جَعَلَتَ لِشَيْبِهَا دَمَهُ خِضَابًا

وقول جرير[7]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٢٥.

(٢) انظر: الجاحظ: أبا عثمان عمرو بن بحر: فخر السودان على البيضان (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبه الخانجي. ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م) ١/ ١٧٩.

(٣) ديوان جرير ١/ ١٣٨.

(٤) انظر: المبرد: الكامل ٣/ ١١٢٠-١١٢١.

(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٢٥.

(٦) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٩٠.

(٧) ديوان جرير ١/ ٢٤٤.

وَأَشْمَطَ قَدْ تردَّدَ في عَمَاهُ جَعَلْتَ لِشَيْبِ لِحْيَتِهُ خِضَابَا

فالمادحون المعجبون بشخصية الحجاج الشعرية انتهزوا كل فرصة للإشادة به، حتى وهو يقتل كبار السن، فهو في نظرهم لا يرحم العصاة أبداً، ولا يمنعه عمرهم أو مكانتهم من تنفيذ القصاص بهم.

فالغريب هو الفجوة الواسعة بين الصورة التاريخية للحجاج التي تضخم عدد القتلى الذين أبادهم الحجاج، حتى أوصلوهم إلى مائة وعشرين ألفا[1]، وتعيد وتكرر وتضخم في حوادث القتل، وتصورها بشكل يدل على استبداد الحجاج وسفهه في سفك الدماء[2]، وبين الصورة الشعرية التي لم تتحدث عن هذا الموضوع ولم تستغله أدنى استغلال بل حولته إلى مادة جديدة للمديح.

علاقته ببني أمية:

والحجاج بن يوسف الثقفي محبوب من قبل بني أمية، وهذه الصفة أثبتها الشعر والتاريخ، فكما أطال الشعراء في وصف العلاقة القوية التي تربط الحجاج ببني أمية، وبيان مدى ثقة الخليفة به، وتصويب رأيه في اختياره، كذلك أسرفت كتب التاريخ في ذكر حوادث تدل على مكانة الحجاج من بني أمية وكرامته عليهم، وبلغ الأمر بعبد الملك بن مروان أن يطلب من جرير أن يشنف أذنيه بقصائده في مدح الحجاج على كثرتها كأنه أحد أبنائه[3] وظلت مكانته عالية عند عبد الملك حتى حضرته الوفاة، فجعل جزءاً من وصيته لأبنائه أن يكرموا الحجاج[4]، وفعلاً أكرمه الوليد أيما إكرام، فزوج ابنه مسروراً وكان عابداً ناسكاً بابنة الحجاج بن يوسف[5]، ولم يكن أحد في الشام يستطيع أن يصيب الحجاج بملامة إلا رجلين فقط هما ابن محيريز وأبو الأبيض العنسي ومع ذلك لما كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يشتكي أبا الأبيض العنسي، قال له الوليد: "ما للحجاج كتب يشكوك لتنتهين أولأبعثنك إليه"[6]، فمجرد شكوى الحجاج فيه أنهت

---

(١) انظر: المسعودي: مروج الذهب ٢/٥٣.

(٢) انظر: المبرد: الكامل ١/٢٦٤، ٢٦٥.

(٣) انظر: الثعلبي: التاج ص ٢٣٢.

(٤) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/٢٢٥، والمبرد: التعازي والمراثي ص ١٢٣، ١٢٤.

(٥) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/١٥٩.

(٦) انظر: البسوي: المعرفة والتاريخ ٢/٣٦٧.

حصانته، و جعلته مثل بقية الناس. وظلت هذه المكانة للحجاج عند الوليد حتى توفي الحجاج، فخرج الوليد على الناس مشعان الرأس يتفجع على الحجاج[1].

هيبة الحجاج:

أما عنصر الهيبة التي تفنن الشعراء في رسمه للحجاج حتى صوروه قادراً على الوصول إليهم وهم في أكثر الأماكن تحصناً فهو عنصر تؤيده كتب التاريخ. وقد يكون للعنصر السابق وهو قربه من الخلافة الأموية عاملاً مساعداً جداً على بعث الهيبة في نفوس الآخرين. فعندما طلب الحجاج من عبد الملك بن مروان عزل يزيد بن المهلب والخليفة راضٍ عنه وله ولوالده أيام مشهودة لم يقف الخليفة حائلا دون تنفيذ الحجاج لذلك[2]. ومن هم دون يزيد بن المهلب كثر وكلهم يعرف أن الخليفة لن يقف دون رغبة الحجاج لو أراده بمكروه. وفي حادثة مطرف بن المغيرة تصور كتب التاريخ مدى الرعب والهيبة التي يبثها الحجاج في نفوس الناس.فمطرف بن المغيرة قابل مبعوث شبيب واختلف معه، ومع ذلك بلغ الرعب مبلغه في قلب مولاه ابن أبي زياد، حتى جثا على ركبتيه مشفقاً على مطرف، وقال له: "والله لا يخفى مما كان بينك وبينهم على الحجاج كلمة واحدة، وليزادن على كل كلمة عشرة أمثالها، والله، إن لو كنت في السحاب هارباً من الحجاج ليلتمسن أن يصل إليك حتى يهلكك أنت ومن معك"[3] وهذا هو بالضبط ما صوره الشعراء من سطوة الحجاج، وقدرته على الوصول إلى معارضيه وشدة عقابه وقوته.

اصلاحات الحجاج:

والحجاج بن يوسف ظل والياً مدة تزيد على عشرين عاماً، ومع ذلك لم يمدحه المادحون من الشعراء بإصلاحات مدنية ملموسة إذ مدح بمنع الرشوة والغلول، والحد من اللصوصية، وتأمين طريق الحاج إلى آخر هذه الأمور التي ترتبط بالناحية الدينية والأمنية وهي أمور وقتية تنتهي بوفاة الحجاج، أما إصلاحاته المدنية الملموسة التي نصت عليها كتب التراث مثل كسوته للكعبة بالديباج[4] وبناء القنوات بمكة[5]، وسك النقود باللغة

---

(١) انظر: المبرد: الكامل ٢/٤٥٢.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٤٤.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/٢٦٢.

(٤) انظر: الازرقي: أبا الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس،(بيروت . دار الأندلس، ١٣٨٥هـ)١/٢٥٣.

(٥) انظر: الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ٢/٢٨١.

العربية[1]، وتزيينها بـ "لا إله إلا الله"، ومثل بنائه مدينة واسط أول مدينة في الإسلام بعد عهد الصحابة[2]، واهتمامه بوسائل النقل البرية والبحرية ومحاولة تيسيرها[3]، وغيرها من الإصلاحات فلا يوجد لها ذكر في مديح المادحين، ومع ذلك استغلها الهاجون من الشعراء، وجعلوا منها سبة للحجاج. وقد يكون هجاء الهاجين أحد العوامل التي حفظت نسبة هذه الأعمال للحجاج، وأثبتتها له. وهذه الأعمال في الحقيقة إصلاحات مثمرة إلا أن الباحث يستغرب عدم الاهتمام بمدحه بها، وقد يكون السبب أن الشعراء في عصر الحجاج مازالوا يسيرون على نهج القصيدة الجاهلية وعناصر المديح فيها، ومادحو الحجاج من الشعراء الكبار، ومن أهل الاستشهاد، لذلك كان مدحه بهذه الإصلاحات تجديداً في القصيدة تأباه طبيعتهم المتبعة لا المبتدعة، أما شعر الهجاء فهو يحتمل الكثير، وناظموه جاءوا به تنفيساً عن غضبهم، ولم يبنوه قصائد متكاملة كشعر المديح.

كرم الحجاج:

وما جاء على ألسنة الشعراء في وصف كرم الحجاج أقل بكثير مما يليق بأمير حكم رقعة كبيرة من العالم الإسلامي، الرقعة التي يقيم فيها عدد كبير من الشعراء ويتردد إليها عدد أكبر منهم وخاصة من البادية ينتجعون الأجواد والأمراء طلباً للعطاء، وظلت ولايته مدة طويلة جداً تقرب من عشرين عاماً، ومع ذلك كله لا يمدح بالكرم كثيراً، وأبيات المديح له بالكرم أتت تابعة لموضوع آخر أهم. والأمر الذي خفف من قلة أبيات المديح بالكرم هو أن الحجاج لم يهج كثيراً بالبخل.

والتاريخ يثبت حوادث كثيرة كان فيها الحجاج جواداً في تعامله مع الشعر والشعراء، منها عندما أرسل له عبد الملك بن مروان أنه يوصيه بما أوصى به البكري زيداً فجعل الحجاج لمن يفسر له هذا الأمر عشرة الآف درهم، فلما أخبره أحدهم بالشعر الذي يفسر له ذلك القول دفع إليه الدراهم[4].

وهو يعطي الشعراء أيضاً، فعندما جاء إليه أبو النجم العجلي (ت ١٣٠هـ) مادحاً وأعجب

---

(١) انظر اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص ٢٨١.

(٢) انظر: ياقوت: معجم البلدان ٥/ ٣٥٠ (واسط).

(٣) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٣٠٣.

(٤) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص ٢٦٦.

الحجاج برجزه. سأله عن حاجته فطلب أن يقطعه وادي ذي الجنين في منازل قومه، فأقطعه إياه[1].وكذلك فعل مع جحدر (ت نحو ١٠٠هـ) فبعد أن مدحه جحدر . وكان أسيراً في سجن الحجاج . خيره الحجاج: "إن شئت أسنينا عطيتك، وإن شئت خلينا سبيلك". فاختار أمراً ثالثاً أمضاه له الحجاج إذ قال: "لا بل اختار مجاورة الحجاج أكرمه الله" ففرض له ولأهل بيته وأحسن جائزته[2].

ولكن الحجاج على ما يبدو لا يعطي من بيت مال المسلمين، بل يعطي من عطائه. وفي قصة الجحاف بن حكيم الذي جاء يطلب منه المساعدة في الديات دليل على أمانة الحجاج؛ إذ غضب لضخامة طلب الجحاف . وتوهم فيه أنه طلب مالا يستحقه من بيت مال المسلمين. فقال الحجاج: "أعهدتني خائناً لا أبالك!!" [3]. وفي رواية "والله لا أعطيك مال الله"[4]. وفي جميع الروايات أن الجحاف طلب عمالة الحجاج، فنزل عنها[5]. فهذه سياسة الحجاج في العطاء وهو يتبعها مع نفسه وهو يتبعها مع عماله، فلما هجا أعشى همدان (ت ٨٣هـ) شجرة أحد عمال الحجاج على الخراج، لأن شجرة أبى أن يعطيه، قال الحجاج لعامله: "مر المعطي أن يعطي الأعشى من عطاء شجرة كذا وكذا". ليشتري عرضه منه[6]. ولأن الحجاج لا يعطي إلا من عطائه فلابد أن يصبح عطاؤه محدوداً. لذا يصبح بخيلاً بالمقارنة بمن يعطي من بيت مال المسلمين.

وللحجاج أسلوب فريد في مجازاة الشعراء. فجرير مثلاً لكثرة شعر المديح الذي قاله في الحجاج وجودته لم يملك الحجاج ما يجازيه به، لذلك رأي أن يبعثه إلى عبد الملك بن مروان. وفي هذا تكريم لجرير أي تكريم فضلا عن العطاء الموفور من الخليفة[7].

فقد يكون لأمانة الحجاج وحرصه على عدم مساس بيت المال ما جعل عطاءه يقل

---

(١) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٠/ ١٦٩.

(٢) انظر: ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ٥/ ٤٧.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٢/ ٢٠١.

(٤) البلاذري : أنساب الأشراف ٥/ ٣٣١.

(٥) انظر: ديوان الأخطل. صنعة السكري رواية عن ابن حبيب ص ٣٨. البلاذري: أنساب. الأشراف ٥/ ٣٣١. أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/ ٥٧.

(٦) انظر: أبا الفرج الاصفهاني: الأغاني ٦/ ٥٧.

(٧) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/ ٢٧٨.

عن غيره، وإن دعته الحاجة إلى إجزال العطاء بعث إلى الخليفة ليتولى المكافأة مما جعل الشعراء من مادحيه لا يكثرون من مدحه بالكرم، كما جعل أعداءه لا يكثرون من هجائه بالبخل.

رثاء الحجاج:

ومن الأمور اللافتة للنظر أن الحجاج على ماله من مكانة كبيرة عند الخليفة الأموي، ورغم كثرة مادحيه من الشعراء، لا يوجد له رثاء. فيما اطلعت عليه من مصادر. إلا في شعر الفرزدق[1]. ويبرز هنا سؤال: أين بقية الشعراء ممن مدحوا الحجاج وأخلصوا في مديحه، خاصة أن الحجاج توفي قبل وفاة الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ)، والوليد محب له، وكما تقرب الفرزدق إلى الوليد بن عبد الملك برثائه للحجاج فإنه من المنتظر أن يتقرب إليه شعراء آخرون برثاء أمير سيطر على جزء الدولة الشرقي الأكثر خطرا، فقام بواجبه خير قيام، ولكن المصادر التي اطلعت عليها لا يوجد فيها كبير غناء، إذ تخلو من شعر في رثاء الحجاج.

ولمحاولة الإجابة التقريبية على هذا السؤال، فإنه يلاحظ أن الحجاج توفي على الأرجح في رمضان أو شوال من عام ٩٥هـ[2]، والوليد بن عبد الملك توفي في جمادى الأولى أو الآخرة من عام ٩٦هـ[3]، فالفرق بين موتيهما على أبعد تقدير ثمانية شهور، وفي ذلك الوقت كانت هذه الشهور الثمانية غير كافية في نشر الأخبار، والشعراء متفرقون في الديار، ولم يلبثوا حتى تولى سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) الخلافة، وكان يكره الحجاج كراهية شديدة، حتى أنه أمر أن يلعن الحجاج على المنابر في اليمامة[4]، لذلك لا يتوقع أن يقوم أحد برثائه بعد ذلك.

والشعراء الذين مدحوا الحجاج من أمثال عبد الله بن الزَبير الأسدي (ت ٧٥هـ) وليلى الاخيلية (ت ٨٠هـ)، والعجاج (ت ٩٠هـ)، والأخطل (ت ٩٠هـ) ماتوا قبل الحجاج، والفرزدق (ت ١١٠هـ) قام برثائه لأنه يقيم في العراق، وجرير (ت ١١١هـ) كان يقيم في البادية بعيداً عن العراق وإنما يقدم إليها بين الفينة والأخرى مادحاً أو هاجياً وممترياً وقد يكون بين وصول

---

(١) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/ ٣٦٥، ٢/ ٤٩٤.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٩٦.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٩٧

(٤) انظر: البسوي: المعرفة والتاريخ ٢/ ٤٨٢.

خبر موت الحجاج إليه وصياغته قصيدة رثاء في الحجاج وصول الأئمة لاعنين للحجاج بأمر سليمان بن عبد الملك في اليمامة بلد جرير، مما منعه من رثائه.

فصورة الحجاج كما رسمها الشعراء اتفقت مع الصورة التاريخية في وجوه منها تصوير هيبة الحجاج التي أخافت أصدقاءه قبل أعدائه، وما صورته من تقدير خلفاء بني أمية له حتى عدوه ذراعهم الأيمن، واختلفت في تصويرهم لإصلاحات الحجاج التي اتسمت بالتنوع والكثرة في كتب التاريخ، ولم يتحدث مادحوه إلا عن جزء يسير منها. أما الاختلاف الكبير بين الصورتين الشعرية والتاريخية فيرى في صورته الحربية والعسكرية، فصورته عند الشعراء يغلب عليها صفة القائد البطل الذي يقود الحرب طلباً لرضا الله وإبعاداً لشبح الفرقة وطاعة لولاة الأمر، ولأهدافه السامية تلك خرج من معاركه منتصراً، وهو لإخلاصه في حربه تلك لا تأخذه في الله لومة لائم في قطع دابر المفسدين مهما كثر عددهم أو كبر سنهم. أما الصورة التاريخية فجعلته متجنياً في حروبه تلك معتدياً فيها حتى أحل لنفسه قتل كبار السن ومن اعتزلوا الحرب. وقد أكثرت كتب التاريخ الحديث عن سفكه للدماء وصورت ذلك بصور شتى وضخمت عدد القتلى مما يجعل الحجاج محباً لسفك الدماء بدون هدف ديني وتربوي. ومع ذلك سكت الشعراء الهاجون عن استغلال هذه الظاهرة التي يحسبها الباحث ستستغرق معظم شعر الهجاء بناء على التصور التاريخي.

فهذا هو الحجاج في ميزان شعراء عصره رجحت كفة الصورة الإيجابية كثيراً عن كفة الصورة السلبية، وعلى عكس ذلك كانت صورة الحجاج التاريخية ترجح فيها كفة صورته السلبية.

ولم يبق أمام الباحث المنصف إلا أن يردد قول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) فبعد ذكره لما قاله سابقوه عن أفعال الحجاج ومعظمها أفعال سيئة قال: "ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه، وربما حرفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات، وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر وكان يكثر من تلاوة القرآن، ويتجنب المحارم، ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها، وخفيات الصدور وضمائرها"[1].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية د/١٣٢/١٣٢.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأثير: عز الدين علي بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ).

١) الكامل في التاريخ (بيروت، دار صادر، ط٦، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

- أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

٢) المسند: شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف).

- الأخطل: أبو مالك غياث بن غوث التغلبي (ت ٩٠هـ).

٣) شعر الأخطل، صنعة السكري رواية عن ابن حبيب، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

- الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت نحو ٢٥٠هـ).

٤) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق : رشدي الصالح ملحس (بيروت، دار الأندلس، ١٣٨٥هـ).

- ابن أعثم: أبو محمد أحمد الكوفي (ت ٣١٤هـ).

٥) كتاب الفتوح (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

- أعشى همدان: عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث (ت ٨٣هـ).

٦) ديوان أعشى همدان وأخباره، تحقيق: حسن أبو ياسين (الرياض ، دار العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٧٧م).

- البخاري: محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ).

٧) التاريخ الكبير، طبع تحت مراقبة : عبد المعين خان (المكتبة الإسلامية، تركيا).

- البسوي: أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ).

٨) المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

- البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ).

٩) سمط اللآلي، تحقيق: عبد العزيز الميمني (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م).

١٠) معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفي السقا (بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).

١١) أنساب الأشراف، تحقيق: محمد الفردوس العظم (دمشق، دار اليقظة العربية، ٢٠٠٢م).

- أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٢٩هـ).

١٢) ديوان الحماسة، تحقيق: عبد الله عبد الرحمن عسيلان (الرياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ ١٩٨١م).

١٣) الوحشيات، وهو الحماسة الصغرى، تحقيق: عبد العزيز الميمني وزاد في حواشيه: محمود محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف، ط٢).

- الثعلبي: محمد بن الحارث:

١٤) أخلاق الملوك المعروف باسم التاج في أخلاق الملوك. والمعزو خطأ إلى الجاحظ (بيروت، دار الفكر، ودار البحار، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م).

- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ).

١٥) كتاب البغال (ضمن رسائل الجاحظ) تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م).

١٦) البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت، دار الفكر، ط٤).

١٧) الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت، دار البحار والتراث العربي).

١٨) فخر السودان على البيضان (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م).

١٩) فصل ما بين العداوة والحسد (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م).

- جرير: جرير بن عطية الخطفى (ت ١١١هـ).

٢٠) ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه (القاهرة، دار المعارف، ط٣).

- الجهشياري: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ).

٢١) الوزراء والكتاب ، تحقيق: مصطفي السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٥٧هـ. ١٩٣٨م).

- الحارث بن خالد المخزومي (ت ٨٠هـ).

٢٢) شعر الحارث بن خالد، تحقيق يحيى الجبوري (النجف، مطبعة النعمان، ط١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

- ابن حبيب: أبو جعفر حبيب الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥هـ).

٢٣) المحبر، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر (بيروت، دار الآفاق الجديدة).

- ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).

٢٤) تهذيب التهذيب (حيدر آبار، دائرة المعارف النظامية، ط١، ١٣٢٥هـ).

- ابن أبي الحديد: أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦هـ).

٢٥) شرح نهج البلاغة، تحقيق: حسن تميم (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٣م).

- ابن حمدون: محمد بن الحسن بن محمد (ت ٥٦٢هـ).

٢٦) التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس (بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٦م).

- أبو حنيفة: أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ).

٢٧) الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال (بيروت، دار المسيرة).

- خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ).

٢٨) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري (بيروت، دار القلم ومؤسسة الرسالة، ط٢، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

- ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت ٢٨١هـ).

٢٩) تعليق من أمالي ابن دريد، تحقيق: السيد مصطفي السنوسي (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).

- ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد العزيز بن محمد (ت ٢٨١هـ).

٣٠) الأشراف، تحقيق: وليد قصاب (الدوحة، دار الثقافة، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

- الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ).

٣١) سير أعلام النبلاء، تحقيق: مأمون الصاغرجي، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م).

- الرقام البصري: أبو الحسن محمد بن محمد (عاش في الربع الأول من القرن الرابع

الهجري).
٣٢) العفو والاعتذار، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح (الرياض، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١هـ).
- ابن سعد: محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ).
٣٣) الطبقات الكبرى (بيروت، دار بيروت ودار صادر، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨هـ).
- ابن سلام: محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢هـ).
٣٤) طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر (القاهرة، مطبعة المدني).
- الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ).
٣٥) أخبار أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، خليل محمود شاكر، نظير الإسلام الهندي (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٣، ١٤٠٠هـ - ١٩٨١م).
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).
٣٦) تاريخ الأمم والملوك (بيروت، دار القاموس الحديث).
- ابن طيفور: أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ).
٣٧) بلاغات النساء،تحقيق: محمد طاهر الزين (الكويت، مكتبة السندس، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلس (ت ٣٢٨هـ).
٣٨) العقد الفريد، تحقيق: محمد العريان (القاهرة، دار الفكر).
- عبد الله بن الزَبير الأسدي (ت نحو ٧٥هـ).
٣٩) شعر عبد الله بن الزَبير، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).
- العجاج: عبد الله بن رؤبة (ت ٩٠ هـ).
٤٠) ديوان العجاج رواية الأصمعي وشرحه، تحقيق: عزة حسن (بيروت، حلب، دار الشرق العربي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).
- ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ).
٤١) بغية الطلب في تاريخ حلب (فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩هـ).

- أبو العرب: محمد بن أحمد التميمي (ت ٣٣٣هـ).

٤٢) كتاب المحن، تحقيق: يحيى الجبوري (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

- العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت بعد ٣٩٥هـ).

٤٣) الأوائل، تحقيق: وليد قصاب ومحمد المصري (الرياض، دار العلوم).

٤٤) الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٢).

- أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ).

٤٥) الأمالي، مراجعة لجنة التراث العربي في دار الآفاق الجديدة (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠هـ).

- أبو عبيدة: معمر بن المثني (ت ٢٠٩هـ).

٤٦) نقائض جرير والفرزدق (ليدن، بريل، ١٩٠٨ - ١٩٠٩م).

- أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ).

٤٧) الأغاني، تحقيق: لجنة من الأدباء (بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م).

- الفرزدق: همام بن غالب (ت ١١٠هـ).

٤٨) شرح ديوان الفرزدق، تحقيق: عبد الله الصاوي (القاهرة، مطبعة الصاوي).

- القتال الكلابي:

٤٩) ديوان القتال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس (بيروت، دار الثقافة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ).

٥٠) الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء (القاهرة، مصطفي البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م).

٥١) عيون الأخبار (بيروت، دار الكتاب العربي).

٥٢) المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة، دار المعارف، ط٤).

- ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ)

٥٣) البداية والنهاية (بيروت، مكتبة المعارف).

- ابن الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ).

٥٤) جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن (بيروت، عالم الكتب ومكتبة النهضة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).

- ليلى الأخيلية: ليلى بنت عبد الله بن الرحال (ت ٨٠هـ).

٥٥) ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق: خليل العطية وجليل العطية (بغداد، دار الجمهورية، ط٢، ١٩٧٧م).

- المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ).

٥٦) التعازي والمراثي، تحقيق: محمد الديباجي (دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م)

٥٧) الكامل، تحقيق: زكي مبارك (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م).

- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ).

٥٨) التنبيه والإشراف (بيروت، مكتبة خياط).

٥٩) مروج الذهب (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

- أبو النجم العجلي: الفضل بن قدامه (ت ١٣٠هـ).

٦٠) ديوان أبي النجم العجلي، تحقيق: علاء الدين آغا (الرياض، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

- النهشلي: أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم (ت ٤٠٥هـ).

٦١) اختيار الممتع من علم الشعر وعمله، تحقيق: محمود شاكر القطان (القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٨٣م).

- الوزير المغربي: الحسين بن علي بن الحسين (ت ٤١٨هـ).

٦٢) الإيناس في علم الأنساب، أعده للنشر: حمد الجاسر (الرياض، النادي الأدبي، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ).

٦٣) معجم البلدان (بيروت، دار صادر).

- اليعقوبي: أحمد ابي يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢هـ).

٦٤) تاريخ اليعقوبي (بيروت، دار بيروت، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م)